د. فهيمة بن عثمان
جامعة الوادي

الأبعاد الاجتماعية للأحاديث النبوية الواردة في فكر مالك بن نبي

الأبعاد الاجتماعية للأحاديث النبوية الواردة في فكر مالك بن نبي

إبداع بوك للنشر، 2025©
ISBN: 978-9969-642-08-7
الإيداع القانوني: ديسمبر 2025

العنوان: رقم 06 نهج ت.س حي دوار الديس - باتنة/ الجزائر
الهاتف: 0676.77.57.15
البريد الإلكتروني: ibdaa.book@gmail.com

ibdaabook.dz ibdaa.book

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بنسخ أو استعمال هذا الكتاب أو جزء منه بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

د. فهيمة بن عثمان
جامعة الوادي

الأبعاد الاجتماعية للأحاديث النبوية الواردة في فكر مالك بن نبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا كثيرا مباركا، يليق بجلال وجهه تعالى، وعظيم سلطانه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الرحمة المهداة والنعمة المسداة للعالمين، وبعد:

موضوع الكتاب

إن القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه إلى البشرية جمعاء، في جميع مجالات الحياة، وإن للسنة النبوية الوظيفة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم 3)، فقد كانا بذلك نبعان لا ينضبان عبر الزمن، وكانت الضرورة تستدعي دائما فهما متجددا للقرآن الكريم والسنة النبوية، ليكونا الحكم والموجهين للإنسان في أحواله التعبدية وفي معاملاته وأحواله الشخصية، وكذلك في أموره الاقتصادية والنفسية والاجتماعية ..

لقد توالت شروح الحديث عبر الزمن، ولقي اهتماما بالغا من طرف العلماء، فبحثوه بحثا سنديا حتى تفننوا في ذلك، كما برع العلماء في بيان معانيه اللغوية وأحواله النحوية والبلاغية، ووجه العلماء اهتماما بالغا للأحاديث الفقهية فاستخلصوا منها أحكام العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية ..

و المتأمل لهذين المصدرين يجد أن فيهما فقه الحياة كلها، بما في ذلك السنن النفسية والاجتماعية والاقتصادية والكونية والتاريخية ..فإذا ما فهم هذا الجانب اتضحت سنن الازدهاروالتطور، وكذلك سنن الانحطاط والارتكاز، وفهم هذه السنن ضرورة للأمة الإسلامية، لأن لها رسالة توجيه الأمم وقيادتهم، لكونها تحمل منهاج حياة وهداية . وهذه المهمة العظيمة منوطة بعلماء النفس والاجتماع المسلمين، لأنهم الأقدر على فهم الأبعاد العميقة النفسية والاجتماعية والتاريخية لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.و هذا الفهم العميق للنص مفيد سواء انطلق العلماء من النص، أو انطلقوا من الواقع والتاريخ ليصلوا إلى حقائق قررها

الحديث النبوي.

من العلماء الذين اهتموا بالدراسات الاجتماعية، وحاولوا جادين فهم واقع الأمة الإسلامية، وتشخيص أمراضها، ووصفوا الدواء لعودتها إلى سير التاريخ وركب الحضارة المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله.

لقد كان يحلل الواقع والتاريخ، فيعرف الأسباب التي أدت إلى النتائج، وكان يصل بذلك إلى الحقائق والنظريات، يسعى للتدليل على صحتها بما أتيح له من وسائل الاقناع والبراهين. ومما كان يستشهد به على صدق نظرياته الحديث النبوي الشريف، فيدّعم به رأيه، لقد كان يدرك تماما أن لهذه الأحاديث أبعادا اجتماعية عميقة، فكان يستخدم الحديث النبوي الواحد في أكثر من موضوع، وهذا يدل على وعي مالك بن نبي بغنى الحديث وعمق معانيه، فإذا ما تأمله العلماء استنتجوا منه معاني لا تحصى.

لا أقول أن مالك بن نبي كان شارحا للحديث، ولا أنه كان مفسرا، لكنه كان عالم اجتماع ركز دراساته على المجتمع الإسلامي ليعرف ماضيه وحاضره، وليصل بذلك إلى نظريات وخلاصات تساهم في إعادة المجتمع الإسلامي إلى سير التاريخ وركب الحضارة، وكان يستدل على صدق نظرياته بأحاديث نبوية يرى أن لها هذه الأبعاد والمعاني، وكأن مالك بن نبي كان يعطي لأفكاره الأصالة الإسلامية، وأن مواقفه ونظرياته في الغالب الأعم لها سندا من النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية الشريفة.

كان مالك بن نبي إذا وصف ظاهرة ما يقول :" وقد عبر القرآن الكريم، أو الحديث النبوي بكذا وكذا، وإذا ما طرح موضوعا للنقاش وتوصل إلى نتيجة فيه قد يعنونه بآية قرآنية أو حديث نبوي شريف، وأحيانا أخرى وهو يحلل المواضيع يقول :" وقد عبر القرآن الكريم أو الحديث النبوي عن هذا بكذا وكذا"

لذلك آثرت البحث في هذا الموضع لأبين كيف كان مالك بن نبي يستثمر

الحديث النبوي في الدراسات الاجتماعية ؟ وما مقدار توظيفه للنصوص الحديثية ؟ وما نوع النصوص التي كان يوظفها في أبحاثه؟

لقد كان يلفت انتباهي دائما طريقة مالك بن نبي في توظيفه للنصوص الحديثية وفهم أبعادها، وكذلك مع الآيات القرآنية، كأنه بهذا يبين دلالات هذه الأحاديث النبوية، ويعدد مواضيعها، ودلالاتها، وكان يشدني أكثر قدرته العجيبة على توظيف الحديث النبوي الواحد في أكثر من موضوع، فكان هذا التوظيف يكشف مخزونا كبيرا للمعاني للحديث الواحد، وكان يكشف كذلك عن قدرة كبيرة لمالك بن نبي في فهم النص الحديثي وصبر أغواره، وإدراك معانية الواسعة.

إن جمع هذه الفهوم في كتاب واحد يجعل منها أنموذجا للفهم الاجتماعي للأحاديث النبوية، حيث عمق النظر، وحيث ينظر للنصوص الحديثية أنها تحوي سننا اجتماعية وتاريخية ونظريات اجتماعية لا تتبدل مع الزمن، فتوظيفه للنصوص الحديثية في نظرياته الاجتماعية دليل على صدقها .و هذا يدعو علماء الاجتماع المسلمين لمزيد من النظر في النصوص الحديثية لاكتشاف معانيها ودلالاتها المختلفة، فهذه الفهوم لمالك بن نبي للنصوص الحديثية هو بمثابة النموذج الدافع لاكتشاف بقية السنن التي تحتويها النصوص الأخرى والتي نمر عليها بفهم سطحي.

إن هدفي من هذا البحث هو جمع أغلب الأحاديث التي وظفها ابن نبي في كتبه، وبيان كيفية توظيفها، حيث كان يجعلها أحيانا عناوين الفصول، أو يبدؤها بحديث نبوي شريف، ونجده في معالجته للمواضيع وفي تحليلاته يستشهد بالنصوص الحديثية، و هذا يبين أن ابن نبي كان على وعي تام وهو يستخدم هذه الأحاديث بأن لها دلالات اجتماعية، لقد كانت له القدرة على صبر أغوار النصوص الحديثية ومعرفة أبعادها الاجتماعية أو الاقتصادية ..رغم أننا نمر عليها مرورا سطحيا لا نفهم معانيها ودلالاتها العميقة .

كما أنني أهدف من خلال هذا البحث إلى تقديم أنموذج في فهم أبعاد الحديث النبوي، الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية ..ليكون مثالا يحتذى به في فهم النصوص الحديثية، والسعي للتعمق فيها، لاكتشاف النظريات والسنن المتنوعة التي تحملها النصوص الحديثية والتي كان ابن نبي رحمه الله واعيا بها حين كان يقول مثل العبارات الآتية: النبي الاجتماعي، يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم للعبرة لا لمجرد الاخبار.. وغيرها من العبارات التي تدل أن ابن نبي كان واعيا للسنن والنظريات والآراء التي تحملها النصوص الحديثية، وكأنه كان يؤصل لفكره تأصيلا إسلاميا.

د.فهيمة بن
عثمان
أستاذة الدعوة والإعلام
fahimabenathmane28@gmail.com

الفصل الأول:
التعريف بمالك بن نبي وتحديد محاور تفكيره

المبحث الأول: التعريف بمالك بن نبي -رحمه الله-

أولاً- حياة ابن نبي -رحمه الله-

1-المولد والنشأة

ولد المفكر الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - في مدينة قسنطينة عام 1905م، في عائلة فقيرة، تبناه عمه، وبعد وفاته اضطرت زوجة عمه أن تعيده إلى أبويه الذين انتقلا إلى مدينة تبسة حيث بقي والده هناك ردحا من الزمن دون مورد يعيش منه ودون عمل فيقول: "ففي العائلة الفقيرة، لابد أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة، وبالتالي فهي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائما فارغا"[1].

تلقى تعليمه الأول في الكتاب حيث يدّرس القرآن الكريم، وبقي يتردد عليها أربع سنوات، كما التحق خلال تلك الفترة بالمدرسة الفرنسية وبقي يتردد على مدرسته القديمة لتعليم القرآن الكريم التي انقطع عنها بعد ذلك لأنه لم يتعلم فيها الكثير. إلا أنه لم ينقطع عن الثقافة الإسلامية حيث بدأ يكثر من التردد على المسجد وخاصة أيام العطل والجمعة وأيام الصيف حيث كان جمهور التبسيين ينقسم إلى تيارين:

1_ جماعة يمكثون في المسجد بعد صلاة العشاء لسماع دروس الإمام.

2_ آخرون يقصدون المقاهي الأهلية حيث القصاصون يقصون بعض حكايات ألف ليلة وليلة[2].

نجح في شهادة الدروس الابتدائية وامتحان المنح الذي كان له أكثر من أثر ومعنى عند طفل من أبناء المستعمرات، حيث لا يستطيع أهله إرساله إلى الثانوية.

---

[1] شاهد للقرن، مالك بن نبي (دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 2، 1984م)، ص 19.

[2] مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، أسعد السحمراني، (دار النفائس، بيروت، ط1، 1984)، ص 14.

انتقل إلى قسنطينة ليواصل دراسته في المرحلة التكميلية عدلا في الشرع الإسلامي بمدرسة سيدي الجيلي، حيث أستاذه مارتان الذي كان يثري تلاميذه بالمفردات ويطبع في نفوسهم الذوق في الكتابة[1].

كانت المرحلة الثانوية هي المرحلة الذهبية في حياته، حيث تلقى من الشيخ عبد الحميد أول أسس الثقافة العربية، وبدأ يقرأ المؤلفات فقرأ بيرلوتي، كلود فارير، فاقدات السعادة، كما أن أستاذه بوبريتي قد فتح له أفاقا جديدة بفضل توجيهاته فيما يقرأ من كتب، فكانت قراءاته تجعله يتخلى عن شيء من أوهامه وسذاجته، كما كانت دروس الشيخ مولود بن موهوب في التوحيد والسيرة، وكذلك دروس بن العابد في الفقه مذكرا قويا له يعود بروحه إلى الطريق الصحيح إضافة إلى ذلك فقد اكتسب الحماسة من دروس الشيخ عبد الحميد في تحليله ونظراته في انحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة[2].

كما كان من المؤثرات التي وجهت فكره كتابان عثر عليهما في مكتبة النجاح، الأول هو كتاب الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبدو[3].

لقد أدرك بمطالعاته تاريخ الشرق، وعرف ظروفه البائسة حاضرا كما استفاد في هذه المرحلة من زميله حمودة بن الساعي حيث يقول: "كنت استمع إلى طريقته في توجيهه الآيات القرآنية لتتخذ تفسيرا اجتماعيا لحالة المجتمع الإسلامي الحاضر، وكان ذلك يؤثر في نفسي كثيراً"[4].

كما تعرف أيضا في هذه المرحلة على بعض تلامذة ابن باديس، الذين كانوا من دعاة الإصلاح وكان ابن نبي - رحمه الله - يشعر دائما بأنه وهؤلاء في اتجاه فكري

---

[1] شاهد للقرن، ص 48.

[2] المصدر نفسه، ص 66.

[3] المصدر نفسه، ص 66.

[4] المصدر نفسه، ص67.

واحد هذا الشعور الذي لم يكن يجده مع من كان يعاشرهم من طلبة المدارس الثانوية.

كما أن مطالعاته للجرائد قد أكسبته فوائد عظيمة، فهذه جريدة الإقدام يقول عنها "فالإقدام وضعت في فكري الحدود السياسية الدقيقة فكانت تكشف عمليات استغلال الفلاح الجزائري وقد بلغت درجة لا توصف في هذه الفترة "[1].

و كانت هناك جريدة الإنسانية التي كانت تحمل له غضباتها ومهدئاتها، وكانت تنتقم وتثأر له من النظام الاستعماري.

و بعد نهاية السنة الرابعة عام 1924 - 1925 سافر مع صديقه (قاواو) إلى فرنسا بحثا عن العمل، فذهبا إلى مرسيليا، وليون، وباريس، ولكنهما لم يحضيا بعمل مناسب فعادا[2].

عاد إلى تبسة حيث عمل كمساعد يعمل في المحكمة، ثم عين رسمياً كاتباً في المحاكم بمنطقة أفلو، فيقول: "كانت آفلوا بالنسبة لي مدرسة تعلمت فيها أن أدرك فضائل الشعب الجزائري الذي لا يزال بكرا، وكانت هذه فضائله بالتأكيد في سائر أنحاء الجزائر، قبل أن يفسدها الاستعمار"[3].

ومن خلال قسنطينة وتبسة وكذلك فرنسا اكتسب ابن نبي - رحمه الله معرفة علمية بخطر الاستعماروآثاره على المناطق التي يطأها لذلك فقد كان له من التجربة الحسية ما جعله يتوقع مفاسد الاستعماروخطره على هؤلاء الناس الذين يعيشون العصر الذهبي[4].

عاد إلى تبسة فنقل إلى محكمة شلغوم العيد، وانتهى به المطاف بالاستقالة من هذا المنصب ليشتغل مع صهره في مطحنة ولكن وقعت أزمة اقتصادية سنة

---

[1] شاهد للقرن، ص93.

[2] المصدر نفسه، ص 153.

[3] المصدر نفسه، ص 174.

[4] المصدر نفسه، ص 175.

1929 م انتهت بهما إلى بيع المطحنة، واقترح عليه والده السفر إلى فرنسا لإكمال دراسته، وهكذا سافر إلى فرنسا عام 1930م.

2- المرحلة الباريسية 1930-1956م

اقتداء بالطلبة الجزائريين الذين سافروا من الجزائر، التحق مالك بن نبي رحمه الله - بفرنسا عام 1930م فسجل في امتحان القبول بمعهد الدراسات الشرقية، وفي باريس انظم إلى "الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين "فيقول: " والآن بعد أربعين سنة أرى بكل وضوح أن الريح التي دفعتني في شهر أيلول 1930 م لم تكن تدفعني لمغامرة في أفق بعيد، ولا إلى مرتبة اجتماعية تحققها لي شهادة مدرسة الدراسات الشرقية، إنما كانت تدفعني إلى هذا المكان الذي تكامل فيه تكويني الروحي ولابد من القول إن ضميري تفتح إلى كل المشكلات التي شغلت حياتي حتى في هذه الساعة"[1].

لم يوفق ابن نبي - رحمه الله - في الدخول لمعهد الدراسة الشرقية، لأن الدخول بالنسبة لمسلم جزائري لا يخضع لمقياس علمي دائما إنما لمقياس سياسي. كان ابن نبي - رحمه الله - دائم التفكير بالجزائر، ومأساة الشعب الجزائري باحثا له عن الخلاص فيقول: "وأصبحت أشعر كأنني حملت جميع آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه، وكأنني لذلك المجتمع كبش فداء شاعر بثقل ما حمله من مسؤوليات ومحن وآمال ليحقق الخلاص بفضل دراسته"[2].

دخل مالك بن نبي - رحمه الله - مدرسة اللاسلكي ليدرس هندسة الكهرباء، وظل وفيا لمناقشاته مع حمودة بن الساعي الذي يعترف أنه يدين له، رغم أنه لم ينجز معه أي عمل بعيد المدى، كما ظل ابن نبي - رحمه الله – محافظا على

[1] شاهد للقرن، ص 211.

[2] المصدر نفسه، ص 219.

اتجاهه الإصلاحي، فكان يرتاد الحي اللاتيني حيث يسكن الألوف من المغاربة والعرب.

وفي عام 1931م تزوج من فرنسية أسلمت على يده، فيقول: "والآن بعد أربعين سنة عندما تعود لفكرك تلك الذكريات، أتصور أن الأقدار التي سخرتني وسيلة تعرفت خديجة بواسطتها على الإسلام، قد سخرها هي لأتعرف بواسطتها على الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية"[1].

وفي سنة 1937 م أسست مدرسة لتعليم الأميين فطلب منه التدريس، ولكن الإدارة منعته من مواصلة ذلك، في هذه الفترة اصدر كتابه شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، فكرة الأفرو آسيوية، لبيك، بعدها غادرها إلى القاهرة سنة 1956م.

3 - المرحلة القاهرية 1956 - 1963 م

انقطعت علاقة ابن نبي -رحمه الله- بفرنسا بعد هذه الفترة ولم يزرها قط، وفي القاهرة اتصل بالرئيس جمال عبد الناصر، وخصصت له الحكومة المصرية مرتبا شهريا، فكان مساعداً له على التفرغ للعمل الفكري[2].

وفد ابن نبي -رحمه الله- إلى مصر حاملا معه كتابه فكرة الأفرو آسيوية، ونشر رسالة النجدة الشعب الجزائري ينادي، كما شارك في جلسات مجمع البحوث الإسلامية، وأصدر هناك مؤلفاته بالعربية مباشرة بعد كتابة الصراع الفكري[3].

كانت القاهرة بالنسبة لمالك بن نبي -رحمه الله- المنطلق لاكتشاف دول المشرق العربي، فزار لبنان وسوريا سنة 1959م، فألقى عدة محاضرات في النوادي

[1] المصدر نفسه، ص 269.

[2] مالك بن نبي، مفكراً اصلاحاً، ص 17.

[3] مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي، ص 14.

الثقافية والجامعات كما شارك في الكثير من المؤتمرات التي انعقدت بمكة والكويت وطرابلس[1].

4- العودة إلى الجزائر

لم تتح لمالك بن نبي -رحمه الله- فرصة العودة إلى الجزائر إلا بعد الرئيس هواري بومدين، عاد ليتولى عدة مناصب منها:

_ مستشار التعليم العالي

_ مدير جامعة الجزائر.

_ المدير العام للتعليم العالي .

ثم استقال ليتفرغ للعمل الفكري والإصلاح. وكان من اهتماماته في هذه الفترة التنظير لعمليات التغيير وإعادة البناء فأصدر آفاق جزائرية، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد، يوميات شاهد للقرن، إضافة إلى مقالاته ومحاضراته المتنوعة[2].

كانت لمالك بن نبي -رحمه الله - كل أسبوع بالعاصمة ندوة يعقدها في بيته قصدها الطلبة والشباب من كل أنحاء المغرب العربي وأوروبا.

أودع ابن نبي -رحمه الله- وصية إلى المحامي عمر كامل مسقاوي بالحفاظ على تراثه ونشر مقالاته، وطبع كتبه، وأدى فريضة الحج فمر على سورية أين ألقى محاضرته التي طبعت في كتاب "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين"، وكأنها وصيته الأخيرة ليرحل إلى جوار ربه يوم 31 أكتوبر 1973 م بعد رحلة حافلة بالعطاء والتضحية[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص 15.

[2] مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي، ص 15.

[3] المرجع نفسه، ص 16.

ثانياً: مؤثرات أذكت فكر مالك بن نبي:

يقول محمد المبارك: "إن مالكا يبدو في كتابه هذا وفي مجموع آثاره لا مفكرا كبيرا وصاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرة الفيلسوف المفكرومنطقه، وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره وإن آثاره في الحقيقة تحوي تلك الدفعة المحركة التي سيكون لها في بلاد العرب أولا وفي بلاد الإسلام ثانيا أثرها المنتج وقوتها الدافعة، وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع كما جمع، بين سعة الإطاروالرفعة التي هي موضوع البحث وعمق النظروالبحث، وقوة الإحساس والشعور، أنا لا أقول أنه ابن نبي، ولكن أقول أنه ينهل من نفحات النبوة، وينابيع الحقيقة الخالدة"[1].

ترى ما هي العوامل والمؤثرات التي ساهمت في إعداد شخصية مالك بن نبي - رحمه الله- حتى وصل إلى ما وصفه به الأستاذ محمد المبارك؟.

إن القارئ لكتاب شاهد للقرن الذي يحتوي على السيرة الذاتية لمالك بن نبي - رحمه الله- سيجد أن ابن نبي يعترف فيه بعدة مؤثرات وجهت تفكيره، وأنمت استعداداته فيقول: "أنا شديد التأثربالحدث، أتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ..."[2] إن أول مؤثر ساهم في إعداد شخصية مالك بن نبي - رحمه الله - هو:

1- تأثير الوسط العائلي:

---

[1] وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين (دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1969)، ص 11.

[2] جريدة الشروق الثقافي (ملحق أسبوعي يصدر عن الشروق الشروق العربي) العدد15، الأسبوع من 4-11 نوفمبر1993، نقله عن كتاب: النفس المنبثقة في المدرسة والبيت لتوماس خوبكنز، ترجمة محمد علي العريان (مكتبة النهضة المصرية 1960)، ص 137.

1-1/ تأثير الجدة: يعترف مالك رحمه الله - فيقول: "إن هذه المرأة كانت بارعة في قص الحكايات إذ كانت تشدنا إليها ونحن متعلقون حولها كانت هذه مدرستي الأولى فيها تكونت مداركي..."[1].

لقد كانت حكايات جدته توجه، وتنمي فيه الجانب الأخلاقي، لأن محور قصصها كان العمل الصالح وثوابه، والعمل السيئ وعقابه.

2-1/ تأثير الوالدين: لقد غرس فيه والداه البذرة الإسلامية منذ نعومة أظافره، فقد أدخل مدرسة قرآنية في سن مبكرة، فها هو يقول: "لا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسه، بدل المال سريرها"[2] والفاعلة هنا أمه. كما أن مالك -رحمه الله- يسجل أهم موقف لوالده اتجاهه وهو الدعم المادي لإكمال دراسته في فرنسا، فيقول: "كان يرسل إليّ المبلغ الشهري الذي أعيش به بفرنسا"[3].

3-1/ تأثير زوجته: إضافة إلى الراحة والرعاية البيتية التي وفرتها خديجة لزوجها، فقد كانت له كذلك الوسيلة التي تعرّف بواسطتها على الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية.

2- تأثير المدرسة:

لقد نهل مالك بن نبي رحمه الله - في بداية حياته من القرآن الكريم فترسخت فيه مبادئ الثقافة الإسلامية، إضافة إلى تردده على المساجد وحضور الصلوات فيها، كما أن دروسه التي تلقاها بالعربية قد أعطته زادا معرفيا وروحيا، فهذه دروس الشيخ مولود بن موهوب في التوحيد والسيرة، وكذلك دروس الشيخ بن العابد في الفقه كانت له مذكرا قويا يعود بروحه إلى الطريق الصحيح، وهذه

[1] شاهد للقرن، ص 16.

[2] شاهد للقرن، ص 19.

[3] المصدر نفسه، ص 350.

دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس في تحليله ونظراته لانحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة قد أعطته الحماسة.

أما المدرسة الفرنسية فهو يقول عنها أن أستاذة بوبريتي قد فسح له آفاقا جديدة، بفضل توجهاته فيما يقرأ من كتب، فكانت هذه القراءات تجعله يتخلى عن الأوهام والسذاجات[1].

أما المدرسة الفرنسية فقد فتحت له مجالا أوسع للتثقيف، واكتساب المنهجية العلمية في البحث، لقد تعلم من معلمه مارتان الأساليب التعبيرية، وحب المطالعة، وأخذ من أستاذه برنوت حب التاريخ والانفتاح على الآداب الأجنبية المليئة بالمواقف الإنسانية، كما اكتسب في هذه المرحلة المنهج الديكارتي في التفكير الذي سينعكس على فكره ككل[2].

3- تأثير المصادر المعرفية المختلفة

تعددت المصادر المعرفية التي أخذ عنها بن نبي -رحمه الله- المعرفة، فلم يكن يكتفي بدروس المدرسة بل اعتمد على مصادر عديدة هي:

3-1- المسجد: اكتسب منه الثقافة القرآنية، وتنمية جانبه الروحي وتعميقه.

3-2- الأساتذة: ويقول عنهم "لقد استطاعت الدروس ذاتها خاصة مع أساتذتنا العرب أن تنمي فينا هذه الروح وتغذيها، وكنا نجد شيئا ما أكثر لدى الشيخ مولود بن موهوب الأستاذ في المدرسة ومفتي المدينة، لقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر الذي غرسته في نفسه دراسته على يد معلمه الشيخ عبد القادر المجاوي، وقد تولى هو نقل هذه الغرسة إلى تلك الأجيال من المدرسيين وكنت منهم، وقد أينعت ثمارها في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 66.

[2] مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي، ص 4.

[3] شاهد للقرن، ص 64.

إننا نجد ابن نبي -رحمه الله- يعترف بفضل أساتذته عليه، أما المسلمين منهم فقد أخذ عنهم التوجه الإصلاحي، وتكوّن على أيديهم في جانبه الروحي والعقيدي. أما الفرنسيين منهم فقد أخذ عنهم المنهجية وأسلوب التفكير الرياضي فيقول عنهم: "كان أساتذتنا الفرنسيين يصبون في نفوسنا محتوى ديكارتيا يبدد ذلك الضباب الذي تمت فيه العقلية الميثولوجية التي تتعاطف مع الخرافات النامية في الجزائر"[1].

3-3- الجرائد: لقد كان يطالع جرائدا عديدة منها الإقدام، الإنسانية، الصراع الاجتماعي، العصر الجديد، صوت المساكين، فكانت هذه الجرائد تفضح عمل الاستعمار فوعي التمييز العنصري الاستعماري منذ صغره، واكتسب وعيا سياسيا وحنكة في تحليل الأحداث، ومعرفة ما يحدث في العالم الإسلامي.

4-3- الكتب: كان ابن نبي - رحمه الله - واسع الإطلاع وشغوفا بالمطالعة لذلك فقد اكتسب منها الكثير، وقد قرأ قصة "التلميذ" التي فتحت أمامه علم النفس الذي أتاح لعقله أن يتخلى عن شيء من السذاجات والأوهام.

وقرأ كتاب "الإفلاس الفكري للسياسة الغربية في الشرق" لأحمد رضا، ورسالة التوحيد لمحمد عبدو، لقد كان هذان الكتابان نقطة تحول في اتجاه مالك بن نبي الفكري، فهما الينابيع البعيدة لفكره، فقد رسم له الكتاب الأول الشواهد الكثيرة لبهاء المجتمع الإسلامي في ذروة حضارته، فكان ذلك مقياسا له يقيس به بؤس المجتمع الإسلامي، وانحطاطه في الوقت الحاضر.

أما كتاب محمد عبدو فقد أعطاه مستندا للحكم فقده العالم الإسلامي اليوم، فكانت هذه الكتب تصحّحه وتبعث فيه الحنين إلى الشرق، أما ما تركه فيه الفكر المشرقي أو الأدب العربي فإنه يقول: "ومن ناحية أخرى كان كتابنا الأدبي في مقهى (بوعربيط يزودنا بفرص كثيرة من المشاركة) في الحديث حول الأدب

[1] المصدر نفسه، ص 65.

العربي فيقول:" لقد وجدت بهاءه القديم والمعاصر، وقد استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدّروأفهم العبقرية الشعرية للجاهلية وأولئك الشعراء في بني أمية والعباس، وقد استرعى اهتمامي امرؤ القيس ولذّ لي استماع الشنفرى، واسترسل لي عنترة ..."[1].

كما أنه حصل على كتاب ابن خلدون والمسعودي فكان الأول مدرسة اجتماعية لها موضوعاتها ومناهجها ونظريتها، ولا شك أن ابن خلدون قد مارس تأثيره على ابن نبي -رحمه الله- خاصة في موضوع الحضارة.

أما المسعودي فهو مصدر من مصادر التاريخ الإسلامي، إضافة إلى ذلك فقد قرأ كتابا للفيلسوف الفرنسي كوندیل الذي يعد أستاذ مدرسة علم النفس، فوضع هذا الكتاب عقله وأفكاره وفضوله في اتجاه محدد.

ومن كل ما سبق إن مطالعات ابن نبي -رحمه الله- لم تقتصر على الفكر العربي بل توسعت إلى الفكر الغربي حيث أخذ عن الأول مادته العلمية وموضوعاته، وتعلم عن الثاني المنهجية وكذلك كان تأثير كتاب جون ديوي "كيف نفكر" .

4- رحلاته:

لقد بعثت مطالعات مالك بن نبي -رحمه الله- في نفسه حب السفر، والاكتشاف، ولا أحد ينكر ما للرحلات والسفر من فائدة في توسيع المدارك والآفاق، لقد كانت طفولة مالك بن نبي –رحمه الله- بين تبسة وقسنطينة فيقول: "عدت إليهم وقد ارتسمت في نفسي انطباعات واضحة خلال إقامتي في قسنطينة عند عمي وزوجه"[2]، ولقد انطبع في ذهنه آثار الاستعمار، وكيف أن أفرادا من

[1] شاهد للقرن، ص: 67، 68.

[2] شاهد للقرن، ص: 20.

عائلته تركوا قسنطينة وتوجهوا إلى طرابلس (جده لأبيه، وعمه) بعد أن باعوا أملاك العائلة تعبيرا عن رفضهم للمعايشة الاستعمارية.

كانت قسنطينة لا تزال تحافظ على المظاهر في الإطار الاستعماري ولكن شيئاً فشيئاً تظهر التغيرات في العادات والتقاليد، والعادات الأخلاقية والاجتماعية قد اعتراها التحول والتبديل لقد انتشر الخمر، وفقدت الثقة ... الخ.

كل هذه الآثار جعلت مالك بن نبي - رحمه الله - يدرك خطر الإستعمار منذ صغره.

أما في تبسة فإنه يقول عنها: "ولكن تبسة أصبحت هي الأخرى مجال استقطاب آخر أضاف إلى ذلك طابعه النفسي أيضاً"[1].

لقد كانت تبسة تختلف عن قسنطينة فقد نجت بشكل كبير من تسلط الواقع الاستعماري لأن تربتها لم يكن فيها ما يستهوي المستعمر، لذلك فقد سلمت من المؤثرات الأخلاقية والاجتماعية الناتجة عن الاستعمار، وهكذا نشأ مالك بن نبي - رحمه الله - كباقي أطفال تبسة، فتلقى الثقافة الإسلامية بانتسابه إلى الكتاب حيث حفظ القرآن الكريم، أو بتردده على المساجد، أو سماع قصص ألف ليلة وليلة، فكانت شخصيته تنمو تبعاً لتأثير هذين التيارين.

وبعد رجوعه إلى قسنطينة لإكمال دراسته في الثانوية، كانت له الفرصة للإطلاع على الكثير من الكتب والمجلات والمناقشات مع الطلبة من مختلف الاتجاهات ومنهم تلاميذ ابن باديس فاتجه نحو الإصلاح.

و بانتقاله إلى أفلوا -ولاية الأغواط- حاليا كانت له هذه المنطقة كما يقول: "مدرسة تعلمت فيها أن أدرك خصال وفضائل الشعب الجزائري الذي لا يزال

[1] المصدر نفسه، ص: 20.

بكرا، وكانت هذه هي فضائله بالتأكيد في سائر أنحاء الجزائر قبل أن يفسد منها الاستعمار..."[1] .

لم تكن الأحداث تمر على مالك بن نبي -رحمه الله- هكذا دون أن يفكر فيها، بل كان في كل أسفاره محللاً وملاحظاً اجتماعياً، فكان يقارن ويوازن بين كل المناطق التي يتوجه إليها سواء في الجانب الأخلاقي، أو الديني، أو المادي.

5- الواقع السياسي في تلك الفترة

كانت المرحلة السياسية التي عاش فيها مالك بن نبي - رحمه الله - مرحلة حافلة بالأحداث والغليان، ففي جو الصراع السياسي أثناء الانتخابات البلدية إضافة إلى المهرجانات التي يقيمها كل فائز، كان هذا على مستوى مدينة تبسة، أما في فرنسا فقد أبدى إعجاباً كبيراً بمصالي الحاج.فيقول: "... لقد بدأ نجم مصالي الحاج في الظهور... لكني أعجبت به قدر ما كان ينسينا ركاكة المثقفين ...."[2].

أما عالميا فقد عايش الحرب العالمية الأولى والثانية والحرب الباردة، واندلاع الثورة التحريرية الكبرى، واستقلال الجزائر، كذلك ميلاد حركة عدم الإنحياز أو ما أسماه كتلة الأفروأسيوية.

إن كل هذه الأحداث نمّت الوعي السياسي عند مالك بن نبي - رحمه الله - وجعلته يفهم الصراع في العالم، لقد كان شاهدا على كل هذه الأحداث، وحاضرا فيها حضور عالم الاجتماع الذي يلاحظ ويحلل ويقارن فيخرج بالنظريات والملاحظات البناءة الناتجة عن التجربة والواقع .

6- الإطلاع الواسع على الكثير من العلوم

لم يكن مالك بن نبي - رحمه الله - من الذين يحصرون فكرهم واهتماماتهم باختصاص واحد، بل لقد تعددت اطلاعاته، فهو إلى جانب معرفة الثقافة الإسلامية (قرآن كريم، حلقات في المساجد، أساتذته المسلمين، قراءة المؤلفات

[1] المصدر نفسه، ص: 174.

[2] شاهد للقرن، ص: 228.

الإسلامية، رسالة التوحيد، كتاب ابن خلدون، ومروج الذهب للمسعودي، والمجالات والجرائد ...) .

كان مالك بن نبي -رحمه الله- كثير الإطلاع على الفكر العالمي، ماركس، فرويد، ماوتسي تونغ... إضافة إلى التكوين العلمي بانتمائه إلى المدرسة اللاسلكية، وإطلاعه على تاريخ الأديان ومقارنتها، وعلم الاجتماع ... الخ.

فكان من خلال كتبه المحلل السياسي، والمؤرخ والمصلح، والفيلسوف التاريخي الذي يحلل الأحداث ويستنتج النظريات، والقواعد وكان رجل الحضارة الذي يعرف عوامل بزوغها وشروط اختفائها وكان مالك بن نبي - رحمه الله صاحب النظريات الاقتصادية، والرؤية النفسية ... كل هذا بفضل سعة الإطلاع، وتحرره من محدودية الاختصاص.

ثالثاً: مالك بن نبي ما ألفه، وما ألف حوله

1-مؤلفات مالك بن نبي –رحمه الله- المطبوعة

توفي مالك بن نبي - رحمه الله - تاركا وراءه رصيدا فكريا مجموعا في كتبه المطبوعة، والمخطوطة أما المطبوعة فهي :

1- الظاهرة القرآنية ظهر عام 1964 م.

2- لبيك (رواية) ظهرت سنة 1947 م.

3- شروط النهضة ظهر سنة 1947م.

4- وجهة العالم الإسلامية ظهر سنة 1954م.

5- فكرة الأفروآسيوية ظهر سنة 1956 م.

6- النجدة، الشعب الجزائرية يباد ظهر سنة 1958م.

7- حديث في البناء الجديد ظهر سنة 1960 م.

8- مشكلة الثقافة ظهر سنة 1959م.

9- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ظهر سنة 1960م.

10- الصعوبات علامة النمو في المجتمع ظهر سنة 1960م.

11- الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم ظهر سنة 1960م.

12- فكرة كومنويلث إسلامي ظهر سنة 1960م.

13- تأملات في المجتمع العربي ظهر سنة 1961م.

14- في مهب المعركة ظهر سنة 1961م.

15- ميلاد مجتمع ظهر سنة 1962 م.

16- آفاق جزائرية ظهر سنة 1964 م.

17- مذكرات شاهد للقرن القسم الأول عام 1965 م.

18- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي ظهر سنة 1970 م.

19- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1972 م.

20- المسلم في علم الاقتصاد 1970 م.

21- دور المسلم ورسالة في الثلث الأخير من القرن العشرين 1977 م.

22- بين الرشاد والتيه ظهر سنة 1977.

23- القضايا الكبرى.

2-مؤلفات مالك بن نبي –رحمه الله- المخطوطة

كما ترك الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله – مؤلفات مخطوطة وهي :

1- خطاب مفتوح لخروتشوف وايزنهاور

2- دولة مجتمع إسلامي.

3- مذكرات شاهد قرن (القسم الثالث)

4- العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها.

5- نموذج المنهج الثوري.

6- المشكلة اليهودية

7- العفن.

8- اليهودية أم النصرانية.

9- دراسة حول النصرانية.

10- محاضرات دمشق (مجموعة محاضرات باللغة العربية).

11- مجالس تفكير (محاضرات كان يلقيها في منزله في الجزائر بعد الاستقلال والمسجل فيها باللغة الفرنسية).

3-فكر ابن نبي -رحمه الله- والبحث العلمي:

لقد لقي فكر مالك بن نبي -رحمه الله- الاهتمام من طرف الكثير من الباحثين، فانكبوا على فكره بالدراسة والتحليل ومن أهم الأبحاث التي أنجزت في فكر مالك بن نبي -رحمه الله- ما يلي:

1- نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي -رحمه الله- د/ عمر كامل مسقاوي، (دار الفكر، 1979م – دمشق).

2- مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية، محمد العربي معريش، ماجستير (معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 1982، غير منشورة)

3- مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي رحمه الله، محمد عبد السلام الجفائري (الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1984 م) .

4- مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، د/ مسعود أحمد (دار النفائس، بيروت، 1986 م).

5- مالك بن نبي حياته وفكره، عبد الله العويسي (الثقافة الإسلامية، جامعة محمد سعود الإسلامية، 1405 هـ، غير منشورة).

6- حول فكر مالك بن نبي د/ عمر كامل مسقاوي (دار الفكر، 1985 م).

7- المصادر الدينية والفلسفية في موقف مالك بن نبي من الحضارة (ماجستير فلسفة كلية الآداب، جامعة القاهرة 1986، غير منشورة).

8- حياة مالك بن نبي ونظريته في الحضارة، فوزية محمد بريون (جامعة بيتشيغن، 1988، غير منشورة).

9- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي د/ سليمان عبد الحميد الخطيب (دكتوراه فلسفة، جامعة عين شمس، 1988، غير منشورة).

10- التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي: د/ على القريشي (الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1989 م).

11- الحضارة الإسلامية في فكر مالك بن نبي، لخضر شايب (ماجستير، لغة عربية، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1989 م، غير منشورة).

12- صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي د/ عبد اللطيف عبادة (دار الشباب للطباعة والنشر، الجزائر).

13- مالك بن نبي وآراؤه الإسلامية الحديثة د/ عدنان خليل باشا (دكتوراه جامعة اكسفورد مانشيستر، بريطانيا، 1992 م).

14- كيف عرفت مالك بن نبي، نور الدين بوكروح (الجزائر، 1992 م).

15- الفكر الاقتصادي عند مالك بن نبي، نور الدين بوكروح (الجزائر، 1992 م).

16- النظام البنابي، نور الدين بوكروح (الجزائ، 1989 م).

17- مالك بن نبي، سيغريد فاث، (ألمانيا، 1992 م).

18- مشكلة المنهج في فكر مالك بن نبي، محمد يحياوي (رسالة ماجستير الجزائر، 1992 م).

19- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، آمنة تشيكو الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989 م).

20- مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي، مسعود أحمد (رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، 1988 م).

21- موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الطيب برغوث (دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، 1993 م).

22- أسس التربية عند مالك بن نبي، حسن القريشي (ماجستير كلية التربية بعين شمس، 1982م).

23- الصراع الفكري في العالم الإسلامي ومالك بن نبي، عكاشة شايف.

24- المصادر الدينية والفلسفية في موقف بن نبي من فلسفة الحضارة، زينب سعد مكارم (رسالة ماجستير في الفلسفة، 1986).

25- الفكر الإسلامي المعاصر، توبة غازي، بحث حول فكر مالك بن نبي.

26- مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، زكي الميلاد (دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، 1998م).

27- مفهوم التبعية عند مالك بن نبي، سلوى بن جديد (رسالة ماجستير، جامعة الجزائر للعلوم السياسية والعلاقات الدولية، 1995 م).

28- منهج التفسير في فكر مالك بن نبي، نصر الدين عزوني (رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، باتنة، 2001).

29- مالك بن نبي بين النص ومشكلات الواقع ضمن كتابه، لا إكراه في الدين، جودت سعيد (دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي).

ولا نجزم بالقول أن هذه كل الأبحاث التي ألفت حول فكر ابن نبي-رحمه الله- بل نعتقد بوجود أبحاث أخرى لم نطلع عليها، خاصة وأن الأبحاث والأطروحات تناقش باستمرار في الجامعات الجزائرية وفي غيرها.

المبحث الثاني: محاور تفكير مالك بن نبي.

أولاً: قراءة مختصرة في مؤلفات مالك بن نبي.

إن قراءة متأملة لكل مؤلفات ابن نبي -رحمه الله- ستكشف لنا أنه كان يناضل من أجل إحياء حضارة الإسلام، وأن هذا الهدف قد أخذ جل اهتمامه[1]، فدرسها دراسة منهجية لمعرفة عوامل قيامها، وبنائها، ثم عوامل توقفها، وجمودها ثم العوامل التي أدت إلى أن تبدأ مسيرة التراجع التي انتهت بهذا الانهيار الذي تعيشه الأمة في وقتها هذا[2].

لقد حمل ابن نبي -رحمه الله- هموم الحضارة لأمة غارقة في التلف فانكب على تشخيص وضع العالم العربي الإسلامي المعاصر - تشخيص أمراض المجتمعات الإسلامية - فيقدم العلل ويدرس أوجهها المختلفة ومعانيها في ضوء العلوم الاجتماعية الحديثة، فحلل الخلل الذي يراه في الأمة الإسلامية في العوالم الثلاثة، الأفكار، والأشخاص، والأشياء، معتمدا في كل ذلك على طريقة منهجية وعلمية في الطرح والتحليل.

و كان من الأمراض التي شخصها في العالم الإسلامي الحديث مرض (الانفصال بين الفكر والسلوك، القابلة للاستعمار، الذرية أو العقلية التذريرية، عقد النقص، تضخم الأنا، الذهان وعقدة التساهل والمستحيل، استيراد الحلول الاقتصادية، التكديس، اللافعالية، الحرفية... الخ)[3].

---

[1] _ عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، باتنة، دار الشهاب للنشر، ط2، 1984م ص:13.

[2] طه جابر العلواني، مالك بن نبي وحركة التجديد الحضاري، جريدة الشروق الثقافي، ملحق أسبوعي يصدر عن الشروق العربي العدد 15، الأسبوع من 04-11 نوفمبر، 1993.

[3] انظر كتاب وجهة العالم الإسلامي، ميلاد مجتمع، تأملات، مشكلة الثقافة، لمالك بن نبي.

لا يكتفي مالك بن نبي –رحمه الله- بمجرد تشخيص الأمراض بل يوظف تحصيله وإنتاجه الفكري في البحث عن حلول لمشاكل أمته التي اكتشف عبقريتها وقيمة رسالتها الحضارية في القرآن الكريم[1].

لقد عمل على تقديم منهجية معرفية لاستئناف البناء الحضاري بعد أن حلل أوضاع التخلف والتبعية بطريقة منهجية وأفكار علمية فطرح نظرية للنهوض هي "نظرية الحضارة" إن كتب مالك بن نبي –رحمه الله- تبين وسائل وآليات التحول التي تجعل الإسلام يؤدي فيها دوراً أساسياً ومحورياً، "إن أفكاره تحفزنا في السياسة كما في الاقتصاد والاجتماع إلى تأصيل المنهج وبناء الثقافة القائمة على توظيف الطاقات الإنمائية في خدمة المجتمع"[2].

فإذا كان هدف المسلم هو الحضارة، فإنه لا يصل إليها إلا بالنهضة لذلك كانت كتب مالك بن نبي رحمه الله - إجابة عن هذه الأسئلة، ما هي الحضارة؟ ما هي النهضة ؟ من أين نبدأ هما ؟ ما هي شروطهما ؟ فكان منهجه للإجابة هو وصف العالم الإسلامي المتخلف، وتحليل أسباب هذا التخلف ليصل إلى بيان شروط الإقلاع والنهوض الحضاري، لذلك فقد كان اتجاه ابن نبي دائما هو ضرورة الإصلاح[3].

ومن خلال تأمله في العالم الإسلامي المتخلف توصل إلى حقيقة ثابتة وهي: أن العالم الإسلامي يعيش أزمة حضارية شاملة فلا هي أزمة فكرية، أو أزمة سياسية، أو عقدية، أو اقتصادية ... بل هي أزمة تختلف هي أزمة إنسان "إنسان ما بعد الموحدين الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي كان يحمل في كيانه

---

[1] حميد روابة، مالك بن نبي الرجل الحضارة، جريدة الشروق الثقافي، ملحق أسبوعي عن الشروق العربي، العدد 15، الأسبوع من 04-11 نوفمبر، 1993م.

[2] _ مالك بن نبي، تأملات، دمشق، سوريا، دار الفكر، 1985، ص: 4.

[3] انظر شروط النهضة وجهة العالم الإسلامي، ميلاد مجتمع.

جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين"[1].

ومالك إذ يقف أمام كل هذه الأزمات للعالم الإسلامي فإنه يرى الحل في التغيير الشامل للإنسان، وهو أن تعود للقرآن الكريم تلك الميزة وهي تحريك الحياة، وأن نجعل من آيات القرآن أمرا حيا يملي على الفرد سلوكا جديدا ويجذبه جذبا إلى حياة العمل والنشاط[2] "فإننا بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها .. وأول ما يصادفنا في هذا السبيل هو أنه يجب تنظيم تعليم القرآن تنظيما يوحي معه من جديد إلى الضمير المسلم (حقيقة) القرآنية كما لو كانت جديدة نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير"[3].

هذا بالنظر إلى كتبه نظرة عامة، أما حينما تكون زاوية نظرنا هي كل كتاب على حدا فإننا سنجد قضايا تفكيره موزعة كالآتي:

1- نظرات في القرآن الكريم ومنهج التفسير:

نجدها في الظاهرة القرآنية حيث برهن في هذا الكتاب على صحة نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام برهانا لا يقبل الجدال، معتمدا على المعيار النفسي والأخلاقي، والمنطقي والعقلي، كما يطرح فيه المنهج الفعال للتفسير.

2- شروط الإقلاع الحضاري وعناصر الحضارة:

ونجدها في كتابيه شروط النهضة وميلاد مجتمع، حيث تعرض في هذين الكتابين إلى تعريف المجتمع، وشروط المجتمع الذي يقوم بالفعل الحضاري، كما حدد عناصر الحضارة وأهمية كل عنصر ودوره.

---

[1] _ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين سوريا، دمشق، دار الفكر، د ط، د ت ص: 36.

[2] وجهة العالم الإسلامي، ص: 178، 179.

[3] _ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا، دمشق، دار الفكر، ، ط3، 1986م، ص: 114.

3- السيرة الذاتية وتأريخ الأحداث عصره:

ونجده في شاهد للقرن الذي يقول عنه "ربما يعجب هنا أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، أنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم ولكن للشعب الجزائري عندما يستطيع قراءة تاريخه"[1].

4- مستقبل الإسلام ودور المسلم في العالم:

لقد ألف فيه كتابيه وجهة العالم الإسلامي، ودور المسلم ورسالته في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد تطرق في كتاب الأول إلى واقع العالم الإسلامي ومستقبله، أما في الكتاب الثاني فقد بين وظيفة المسلم وأنه يقوم بدورين في العالم، دور الممثل ودور الشاهد كما يوجد في الكتابين سبيل الخلاص من قبضة الاستعمار، والتبعية للغرب.

5- بيان أساليب الصراع الفكري في البلاد المستعمرة والتحضير للثورة:

وقد ألف فيه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، في مهب المعركة، آفاق جزائرية فقد حاول من خلال هذه الكتب فضح سياسة الاستعماروتسليط الضوء على المشاكل الحقيقية التي ينبغي للشباب الجزائري أن يسعى بفعالية لحلها[2].

6- طرح مشروع سياسي كحل لدول العالم الثالث:

فكرة كومنويلث إسلامي، والفكرة الأفروآسيوية حيث تبين هذه الدراسة الإمكانيات، والوسائل التي تمكن العالم الإسلامي من الاتحاد، والاكتفاء الذاتي وبالتالي الاستقلال في شتى مظاهره[3].

أما في كتاب الفكرة الأفروآسيوية فقد وسع نطاق دراسته إلى مجال العالم الثالث.

---

[1] شاهد للقرن، ص: 288.

[2] _ مالك بن نبي، في مهب المعركة، ، سوريا، دمشق، دار الفكر، 1986م، ص: 8.

[3] _ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك نبي، ص: 29.

7- الجزائر بعد الاستقلال:

و ألف في هذا الموضوع حديث في البناء الجديد، وبين الرشاد والتيه، تحدث فيهما عن مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي.

8- تحليل لمشكلتي الأفكار والثقافة:

فالثقافة مهمتها أنها أسلوب حضارة تحرك الإنسان ووسائله الأربع (المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمال، المنطق العملي، لذلك أولاهما أهمية كبرى في كل كتبه).

كما يرى أنه لكل حضارة نمطها، وأسلوبها وخيارها، والحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل قبلها، سبح خيارها نحو التطلع الغيبي، وما وراء الطبيعة نحو الأفكار كما

تحدث فيه عن مكانة الأفكار، وقيمتها في المجتمع والحضارة[1].

9- الترابط بين القيم الأخلاقية والاقتصادية :

و نجده في المسلم في عالم الاقتصاد حيث نرى فيه كيف يحل النبي -عليه الصلاة والسلام- مشاكل اقتصادية بتوجيهات أخلاقية.

وهكذا من خلال نظرة عامة في كتب مالك بن نبي -رحمه الله- نجد في كتبه إما تشخيص أمراض العالم الإسلامي (الاجتماعية، النفسية والاقتصادية ...) وإما باحثاً لحلول تخرج العالم الإسلامي من دائرة التبعية والتخلف، ومحاولا رسم الطريق لعودة المسلم لخط الحضارة بعد أن خرج منها.

ثانياً: محاور تفكير مالك بن نبي –رحمه الله-

[1] _ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو دمشق، سوريا، دار الفكر، الجزائر، ، دار الفكر، ط1، 1992م ص:7.

لا نكاد نحصي المواضيع التي تعرض لها الأستاذ ابن نبي رحمه الله - بالتحليل والدراسة، إلا أن المشكلة المركزية التي تدور حولها جل كتبه هي، "مشكلة الحضارة"[1].

لقد كان اهتمامه منصب حول تشخيص أمراض العالم الإسلامي الذي يتخبط في التخلق والتبعية، محاولا إيجاد الحلول للمشاكل، والأمراض المطروحة في الأمة الإسلامية، لذلك فقد وضع عنوانا واحدا لكل مؤلفاته هو "مشكلات الحضارة ".

فما أنتجه ابن نبي رحمه الله - من مفاهيم فكرية وأرساه من مناهج تفكير وطرحه من إشكاليات في فقه التخلف والانحطاط الحضاري من جهة، وفقه البناء والتجديد الحضاري من جهة أخرى، كله يهدف إلى استيعاب حركة البناء الحضاري في أبعاده الشاملة التاريخية والآنية والمستقبلية[2].

إن محور تفكير مالك بن نبي - رحمه الله - هو مشكلة الحضارة، وإن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة. لأنها أصل كل تحول حضاري في التاريخ، كما أنه عزا إليها معظم الفاجعات والنكبات التي يصاب بها المجتمع في الميدان الصناعي، أو الأخلاقي، أو السياسي، أو العسكري. فالفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي[3].

كما يرى مالك بن نبي -رحمه الله- أن المحرك للمجتمع هي الفكرة التي تدفعه إلى الفعل الحضاري فيقول: "فهناك مرحلة يكون فيها المجتمع بدائيا فقير

---

[1] صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص: 42.

[2] الطيب برغوث، دعوة إلى التواصل والتأصيل، جريدة الشروق الثقافي (ملحق أسبوعي يصدر عن الشروق العربي، العدد 15، الأسبوع من 04-11 نوفمبر 1993م).

[3] _ الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الجزائر، دار الينابيع للنشر والإعلام، ط1، 1993م، ص:12.

الوسائل، فإذا أدركته فكرة جوهرية تستقطب روحه، اندمج في دورة التاريخ واندفع جهده اليومي نحو مثل أعلى يجعل لأفكاره دوراً وظيفياً"[1].

وإذا كان المجتمع تنوبه المخاطر فليس لقلة في أشيائه بل لفقر في أفكاره، كيف لا وغنى المجتمع لا يقاس بما يملك من أشياء، بل بقدر ما يملك من أفكار.

من هنا فمشكلة العالم الإسلامي مشكلة أفكار، فمنذ انحطاطه ما بعد عصر الموحدين يواجه مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل[2].

إذن فمحاور تفكير مالك بن نبي -رحمه الله- هي:

1_ مشكلة الحضارة.

2_ مشكلة الثقافة.

3_ مشكلة الأفكار

أ- مشكلة الحضارة:

1- تعريف الحضارة: طبع الإنسان على التجمع بأبناء جنسه، لأن هذا الاجتماع يحقق لهم التعاون، ونتيجة لهذا الاجتماع يحتاج الإنسان إلى لغة للتفاهم، وبذلك يتشكل المجتمع، والحضارة من الشروط اللازمة لاستقرار المجتمع، وإن أي غياب لها سيجعل المجتمع يعيش في حالة بدائية تسوده الهمجية، لذلك قد عرف مالك بن نبي -رحمه الله- الحضارة قائلا: "إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان لأنها تضع حاجزاً بينه وبين الهمجية"[3].

فأي غياب للحضارة سيؤدي بالضرورة إلى غياب إنسانية الإنسان وظهور الخلل في عالم أفكاره وأشيائه، "فالحضارة هي التي تنقل الإنسان إلى شكل من أشكال الحياة الراقية"[4].

---

[1] _ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص: 08.

[2] المصدر نفسه، ص: 12.

[3] مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ص: 143، نقله عن كتاب النجدة، مالك بن نبي، ص: 5.

[4] ميلاد مجتمع، ص: 19.

فهي أمان للإنسان وحصانة له، تحفظ حقوقه، واحتياجاته، ويأمن فيها على مصيره لأنها تقدم له الضمانات وهذه وظيفتها "أن يكون للمجتمع مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطواروجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطور نموه، فالمدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صوره عبر سائرتراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"[1].

أيا كان شكل الضمانات التي يقدمها المجتمع للفرد سواء كانت صدقة، أو زكاة أو كفالة ...الخ فإنها شكل من أشكال تكفل المجتمع بكل أفراده.

إن المجتمع الذي يقوم بالفعل الحضاري في نظر مالك بن نبي رحمه الله - هو المجتمع الذي يتغير غبر الزمن -المجتمع التاريخي- للوصول إلى الرقي والازدهار، وليست الحضارة سوى "حصيلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الأفاق، والأنفس، والهداية، من أجل الترقي المعرفي، الروحي والسلوكي والعمراني في عالم الشهادة"[2].

فالحضارة إنجاز خلال الزمن، ويشمل كل المجالات (الاقتصادية، السياسية، العسكرية ...) لذلك كان مالك بن نبي-رحمه الله- يؤكد على فكرة أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، أوهي التي تصنع منتجاتها فكل استيراد لمنتجات وأشياء الحضارة لا يعتبر إنجاز حضاري لأن الحضارة "هي نتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا تتأصل جذوره

[1] القضايا الكبرى، مالك بن نبي (دار الفكر، دمشق، سوريا، دار الفكر، الجزائر، ط1، 1991م) ص: 43.

[2] موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص: 10.

في محيط ثقافي أصيل تتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى، والحضارات الأخرى"[1].

كما يعرف الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- الحضارة بالنظر إلى عناصر تركيبها فيقول أن: إنسان + تراب + وقت= حضارة[2].

فالحضارة تبنى بما يحمل الإنسان من عقيدة وفكر فيستغل بها التراب الذي يكتنز ضرورة الحياة وللطاقات المختلفة. والوقت بتحويله إلى ساعات، وإنتاج فمشكلة الحضارة والتخلف، والتبعية لا نحلها باستيراد منتوجات حضارة قائمة، بل نحلها بحل مشكلات الإنسان، والتراب، والوقت.

كما أن عناصر الحضارة هذه لن تجدي نفعا إذا لم يكن الجامع بينهما وهو الفكرة الدينية حيث تسيطر الروح على حياة الأمة وتظل هي العامل الرئيسي في سيرها التاريخي، فيقول ابن نبي رحمه الله – "فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية... فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا ... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"[3].

إن الفكرة الدينية تبث في معتنقيها الأخلاق الرفيعة، التي تنتشر منها حياة فكرية متجددة، فإذا فقدت الأخلاق تحررت الغريزة، فتكون الهمجية، والحيوانية فتسقط الحضارة على إثر تحرر الغرائز، فإذا ما تحررت الغرائز في الأفراد وسيطرت عليهم توجهت عقولهم نحو الكم والأرقام، وفقد الإنسان قيمته وصارت منتجات الحضارة في يده وسيلة استعمار، ووسيلة اضطهاد وظلم وإفساد وضغط .... الخ.

---

[1] مشكلة الأفكار، مالك بن نبي، ترجمة محمد عبد العظيم علي (دار الفكر، دمشق، سوريا، 1970) ص: 49.

[2] ميلاد مجتمع، ص: 29.

[3] شروط النهضة، ص: 75.

كما يعرف ابن نبي -رحمه الله- الحضارة من الناحية التاريخية الاجتماعية، أي كيف تنشأ وترتقي ثم تنحط.

فتبدأ الحضارة ببزوغ فكرة دينية وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الروح وتكون الحضارة فيها مرحلة الميلاد، ثم تليها مرحلة انتشار الحضارة وتوسعها ويسميها مرحلة العقل لتنتهي بمرحلة الأفول أو الغريزة[1].

و من خلال كل ما سبق وجدنا أن ابن نبي-رحمه الله- قد عرف الحضارة من نواحي ثلاثة:

1- من حيث تركيبها:

أي من العناصر الأساسية التي تتكون منها الحضارة "نظرة تكوينية" أو نشوئية.

2- من حيث وظيفتها:

أي باعتبار وظيفة الحضارة في المجتمع "نظرة وظيفية".

3- من الناحية التاريخية:

أي كيف تنشأ الحضارة، وترتقي، ثم تنحط، أو كيف تتطور[2].

ب- الدورة الحضارية:

لا تكاد الحضارة تثبت في مكان واحد، أو عند شعب واحد، بل إنها تسير من مكان إلى مكان ومن شعب إلى آخر وعلى حد تعبير ابن نبي -رحمه الله-: "الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر"[3].

ولكن العلماء قد اختلفوا في تحديد العامل الذي يجعل المجتمع يتحرك نحو الحضارة فتوينبي يرى أن هذا العامل هو التحديات البيئية الجغرافية والبشرية

---

[1] المصدر نفسه، ص: 98، 99.

[2] مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد تويني آمنة تشيكو، (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989) ص:11.

[3] شروط النهضة، ص: 73.

المحيطة بالمجتمع، وهيقل يراه في الصراع بين النقائض في نطاق المادة ووسائل الإنتاج[1].أما ابن نبي -رحمه الله- فإنه يرد حركة المجتمع نحو الحضارة إلى حدوث عارض غير عادي أو ظرف استثنائي، ويرى أن هذا العارض هو الفكرة الدينية فيقول: "فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات على أصلها الديني الذي بعثها ... فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية ... حينما يكتشف حقيقة حياته كاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريتنا وتتفاعل معها"[2].

ذلك أن رأس مال المجتمع الثابت والأساسي هو الإنسان والتراب والزمن، فإذا جاءت الفكرة الدينية قامت بدور المركب فهذا هو دور الدين الاجتماعي أن يأتي بقيم تنقل الإنسان من مرحلة الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي يتفق مع مرحلة بزوغ حضارة هذا الوضع الذي يجعل من الإنسان وحدة اجتماعية منتجة للأفكار يستغل بها الأشياء، ويوظف بها التراب في الإنتاج الذي يسد به حاجياته في الزمن الذي يكون عند بزوغ الحضارة قد تحول إلى ساعات عمل لا ساعات فراغ تمر وتتحول إلى عدم، فالزمن في الحضارة يتحول إلى تاريخ . فوظيفة الفكرة الدينية إذن هي البعث والإقلاع الحضاري.

ولا شك أن المرحلة الأولى من مراحل الحضارة، هي المرحلة التي تسودها الروح[3].

وميزة هذه المرحلة هو الالتزام بالمبدأ التعبدي الشخصي، أو التعبدي الجمعي (العلاقات الاجتماعية). فالمبدأ هو مركز الدوران الذي تحققه هدف نشاط الفرد

[1] ميلاد مجتمع، ص: 54.

[2] شروط النهضة، ص: 75.

[3] شروط النهضة، ص: 79.

والمجتمع، ولذلك قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمن أرادوا أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة علاقة العواطف: «والله لو سَرَقَتْ فَاطِمَة بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

وكذلك قال الله تعالى لمن أرادوا أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة الحسابات الظرفية ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 8][2].

لقد نبه مالك بن نبي -رحمه الله- إلى أن مرحلة الروح تطبع المجتمع بطابعين هامين هما:

1- خنوس الأنا: وانسجامه مع المسار العام للمجتمع.

2- انسداد الفجوات الاجتماعية وغياب الفراغ الاجتماعي.

ففي هذه المرحلة تكون كل الملكات (الغرائز، العقل...) تحت سيطرة الروح فإذا ما أفلت الروح وظهرت بوادر الفتور، انتهت مرحلة التألق والإشعاع لتبدأ مرحلة لها ميزاتها الخاصة هي مرحلة العقل، حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة العقل ومتجهة نحو المشكلة المادية[3].فمرحلة العقل مرادفة للحسابات الشخصية والأنانية والمصلحة وتمزق الجوانب من خيوط شبكة العلاقات كما كان في معركة صفين.

---

[1] حديث " لو أن فاطمة... " رواه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان حديث رقم 6788، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت) مج 4 ص: 329، وكذلك رواه في باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، حديث رقم 6787 ص: 329، وكذلك رواه في كتاب فضائل أصحاب النبي، باب ذكر، أسامة بن زيد حديث رقم 3733، ج 3، ص: 583. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث رقم 1688 دار احياء الكتب العربية، د. ط، د.ت ج 3 ص: 1315، وكما أخرجه ابو داود، والترميذي، ابن ماجة، وأحمد.

[2] يزيد رمرام، نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي، جريدة الشروق الثقافي (ملحق يصدر عن الشروق العربي، العدد15، الأسبوع 04-11 نوفمبر 1993م).

[3] ميلاد مجتمع، ص: 40.

أما تلك الاختراعات التي قدمها العلماء الفطاحل بعد معركة صفين فهي نتيجة للهندسة الإسلامية للعقل، وليس نتاج مرحلة الملك العضوض[1]. "وهكذا وجدنا الحضارة الإسلامية تتوسع وتنتشر فوق الأرض، تتغلب أولا على جاذبيتها بما تبقى لديها من مخزون روحي حتى إذا ما وهنت فيها قوى الروح وجدناها تخلد إلى الأرض شيئا فشيئا"[2].

وهكذا تبدأ الانفصالات في المجتمع (انفصال المعرفي عن الثقافة، انفصال الإيماني عن السلوكي) فتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة الغريزة المتحررة من وصاية الروح والعقل، وفي هذه المرحلة يصبح النشاط المشترك مستحيلا، وتسود الفوضى والاضطراب ويسود المرض الاجتماعي، وتظهر آثار هذا المرض في علاقات الأفراد وأخلاقهم، فيكون تضخم الأنا، وتحلل وتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية عندما يسترد الفرد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي. وتميل الكفة في هذه المرحلة إلى الشيئية، ويسود قانون الكم والعدد، كم كسبت؟ كم استفدت؟ كم عدد الفيلات؟ كم ألفت كتابا، كم كتبت مقالة؟.... إلخ[3].

وهكذا ينتهي المجتمع ويخرج عن الحضارة. ويعود الإنسان إلى مستوى الحياة البدائية. فيسود الانحطاط، ولا يعود الإنسان، والتراب والوقت عوامل حضارة بلى عناصر خامدة لا صلة بينها[4] ويذهب مالك بن نبي رحمه الله - إلى أن أطوار الحضارة هذه لا تمس الحضارة الإسلامية فقط، بل تمس كل الحضارات فيقول: "والتجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تشذ

[1] يزيد رمرام، نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي (تصدر عن الشروق العربي، العدد 15، الأسبوع من 04 إلى 11 نوفمبر 1993م).

[2] شروط النهضة، ص: 78.

[3] يزيد رمرام، نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي، جريدة الشروق الثقافي (تصدر عن الشروق العربي، العدد 15، الأسبوع من 04 إلى 11 نوفمبر 1993م).

[4] وجهة العام الإسلامي، ص:31.

عن هذه القاعدة[1]". فهذه الأطوار تصدق إذن على الحضارة الإسلامية، كما تصدق على الحضارة الأوربية المسيحية، أو الحضارة البوذية ... إلخ.

ولا يتسع المقام هنا لإعطاء نماذج تطبيقية لمرور الحضارات بهذه المراحل الثلاث لذلك فسأكتفي بالمخطط البياني لتطور الحضارة الإسلامية والذي يبين مرورها بالمراحل الثلاث.

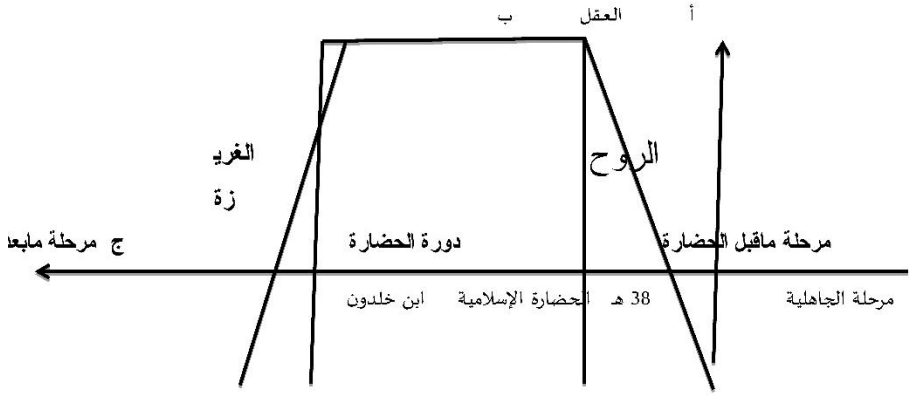

3- مشكلة الثقافة:

إن الناظر في فكر مالك بن نبي رحمه الله - سيلاحظ عناية بالغة أولاها هذا المفكر لمشكلة الثقافة، فلا يكاد يخلوا كتاب من كتبه من الحديث أو الإشارة لمعنى الثقافة، ومفرداتها، وقيمتها الحقيقية في المجتمع والحضارة. كيف لا وملك بن نبي - رحمه الله - يرى أن مشكلة الحضارة في الأساس هي مشكلة ثقافة، والعارف المفردات المنظومة الثقافية وقيمة كل مفردة ووظيفتها لن يستغرب هذا الطرح بل سيؤيده، ويرى صحته، وسيقول ما قال مالك بن نبي رحمه الله - من أن أي إخفاق أو تأخر حضاري يسجله مجتمع من المجتمعات يعود بالأساس إلى الإخفاق الثقافي، لذلك فقبل أن يحل المجتمع مشاكله الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، عليه أن يتجه إلى حل مشاكله الثقافية، وهذا ما جعل الأستاذ ابن

[1] شروط النهضة، ص: 79.

نبي رحمه الله - يولي الثقافة كل هذا الاهتمام، ويضعها في مكان استراتيجي في مشروعه الهام: "مشكلات الحضارة".

"فالمسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقي الحضاري المنشود من جهة أخرى"[1].

أ- تعريف الثقافة:

تكاد معاجم اللغة تجمع على أن الثقافة مأخوذة من ثقف الشيء وهو سرعة التعلم وتقفت الشيء: حذقته، والثقيف هو الحاذق الفطن[2].

فإذا ما عدنا إلى لغة العصر حتى عهد العباسيين لا نكاد نجد هذه الكلمة في استعمال المسلمين. إلا أننا نجد هذا الفعل في القرآن - ثقف - فهذا يبين أن له أصل لغوي يتصل بتاريخه بلغة ما قبل الإسلام: ﴿واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة البقرة]

ونتيجة لهذا فالكلمة لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين لأنها مستعارة أو جاءت من أوروبا[3].

---

[1] موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص: 30.

[2] لسان العرب المحيط، ابن منظور (دار الجيل بيروت، دار لسان العرب بيروت، 1988م) ج1، ص: 364.

[3] مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين (دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق، ط4، 1984)، ص:255.

ويعرف مالك بن نبي-رحمه الله- الثقافة فيقول: "هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"[1].

فهذا التعريف يضم فلسفة الفرد حيث تطبع سلوكه، كما تضم فلسفة الجماعة فتنظم أسلوب حياتهم، فسلوك الإنسان، وأسلوب حياته، وعلاقته بالآخرين هو في الحقيقة نتاج المجتمع الذي ينشأ فيه الإنسان، فهو يستنشقها من المحيط الذي يتربى فيه، كما يتنسم الأكسجين.

لذلك فردات الفعل، وتصرفات أبناء المجتمع الواحد تكون متشابهة حتى وإن اختلفت مستوياتهم المادية والعلمية والطبيب والراعي لهما نفس ردة الفعل والانطباع اتجاه الحوادث، والمشاهدات، والمشاكل التي تواجههما.

فالإنسان حينما يولد في مجتمع معين بالضرورة سيمتص، ويصطبغ بما في مجتمعه من روائح، وألوان وأصوات، وحركات، وظلال، وأشكال وصور .... كل هذه العناصر تتجمع لتندمج وتذوب في أنفسنا فتنطبع شخصيتنا بها، وتكون أساسا لتصرفات وسلوكات أبناء ذلك المجتمع في أخلاقهم، وتفكيرهم ... إلخ. ذلك أن الثقافة هي: "المحيط الذي يتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا"[2].

"فالثقافة تمثل بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الحمراء، والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد هو البلازما) ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته ويحمل أفكار(الصفوة) كما يحمل أفكار (العامة) وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص: 74.

[2] المصدر نفسه، ص: 78.

[3] المصدر نفسه، ص: 78.

فالثقافة إذن هي المحيط الفكري، والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية، والسلوكية، والأخلاقية، الجمالية .... إلخ فتتشكل في هذا المحيط طباعه، وشخصيته، وذوقه، وتحكم علاقته بالسنن التي في النفس وفي الآفاق. فالثقافة نظرية في المعرفة ومنهجا في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء[1].

ب - مفردات المنظومة الثقافية:

لما كان للثقافة الموقع المحوري في حركة التجديد والبناء، لأنها تشكل طباع الإنسان، وأخلاقه، وأذواقه ومنهج سلوكه، ومنهجية عمله، فقد وضع لها الأستاذ ابن نبي -رحمه الله- محاورا إذا ما استوفيت أتت أكلها في بناء الإنسان وإعداده، وبذلك يكون المجتمع قادرا على النهوض، والتطلع إلى الحضارة والمحاور التي حددها ابن نبي-رحمه الله- للمنظومة الثقافية هي:

1- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية.

2- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام.

3- المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع[2].

ب- المبدأ الأخلاقي:

غريزة التجمع أو الحياة الجماعية ثابتة عند الإنسان، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويوظفها بروح خلقي سام، حتى لا يكون كالحيوان، وحتى يتجنب المجتمع الفوضى، واللانظام، ولما كان لهذا العنصر من أهمية فقد كان منحة من السماء إلى الأرض، يأتي مع الرسالات عند ميلاد الحضارات ومهمته كما يقول ابن نبي -رحمه الله-: "هي ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشر إلى ذلك

[1] موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص:14.

[2] شروط النهضة، ص: 132.

القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بين قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 63]" فالروح الدينية هي التي تجمع بين العناصر المتفرقة كما جمع الإسلام بين الأنصار والمهاجرين إلى درجة أن يقول الواحد منهم لأخيه اختر أي النساء من زوجاته لينكحها[1].

فالارتقاء بالأخلاق، والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة، وقد جاء رسولنا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، فيعلوا بها ويسموا إلى درجة يتميز فيها الإنسان عن غيره من المخلوقات التي تأتي ردات فعلها وفقا لغريزتها. والله تعالى يثني على نبيه بفضيلة الأخلاق رغم وجود فضائل لا تحصى خص بها الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿وإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: 4]

مالك ابن نبي - رحمه الله - يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد فيقول: "إن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة"[2].

إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة، والإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج. فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودوافعه، وغاياته.

ب[2]- الذوق الجمالي:

إن الأفكار هي المحور الأساسي في بناء الحضارة، ولذلك كان للأفكار الحية البناءة ألاّ تنتج إلا في وسط منظم فيه من مسحة الجمال والذوق ما فيه. فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه، وكما يقول ابن نبي

[1] مشكلة الثقافة، ص: 79.

[2] شروط النهظة. ص: 124.

رحمه الله: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال أو بالأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح"[1].

فالأفكار تنسج عليها الأعمال، والأفكار تولد من الصور المشاهدة في محيط الإنسان، وإطاره الاجتماعي. فالجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات، وألوان، وحركات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال، والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن. لذلك يقرر ابن نبي رحمه الله: أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة[2].

ونظرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ستكشف لنا عن اهتمامهما بالذوق الجمالي، والنظام، وطهارة النفس والجسم والثياب والمحيط، وإماطة الأذى عن الطرق، والكلام الطيب... هي نماذج هذا النزوع الإسلامي لتربية الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية.

ب[3]- المنطق العملي: ويقصد به معرفة العمل، وتحديد مقاصده، ووسائله، حتى لا يقع المجتمع في استسهال الصعب، واستصعاب السهل دون مقياس وتقدير مستمد من الوسط الاجتماعي وما له من إمكانيات، وقدرات. فبالمنطق العملي يستخرج المجتمع من الوسائل المتاحة له أقصى ما يمكن من الفائدة والمحصول.

فإذا ما غاب المنطق العملي من المجتمع ضيعت الثروات، وبددت الطاقات والإمكانيات في مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها، ولا ترسم الأهداف لأعمالها فتكون محاولاتهم هازلة. والسبب كما يقول: "افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء

[1] مشكلة الثقافة. ص: 81.

[2] المصدر نفسه. ص: 85.

ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العيا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق"[1].

فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل، وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

ب[4]- التوجيه الفني أو الصناعة: ويقصد بها تحويل العلوم النظرية إلى فنون ومهن واستغلال كل الطاقات والقدرات في العمل الصناعي المثمر. لأن الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم، ولكنها بالنسبة للمجتمع كما يقول مالك بن نبي -رحمه الله-: "وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه"[2].

إذن من خلال إطلاعنا على مفردات المنظومة الثقافية، لم يعد من العسير علينا أن ندرك معنى أن مشكلة الحضارة هي في الأساس مشكلة ثقافة. فإصلاح الثقافة هو حل مشكلة الحضارة.

ذلك أنه إذا كان للمجتمع قيما أخلاقية تحافظ على علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم- شبكة العلاقات الاجتماعية - وإذا ما تكّون للمجتمع ذوقا جماليا، فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام، والروائح والأشكال. وأصبح لأفراده منطلقا عمليا يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة لهم، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات، ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تحل فيه مشكلة الحضارة فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

3- مشكلة الأفكار:

[1] المصدر نفسه، ص: 86.

[2] المصدر نفسه، ص: 88.

الأفكار من المواضيع الهامة التي تعرّض لها مالك بن نبي -رحمه الله- مرارا فبيّن أهميتها، ووظيفتها، وخطرها ... إلخ.

ذلك أن الأفكار ركيزة هامة في حياة الأمم، ومقياسا لتقدمها أو جمودها وتخلفها، والانتصار الفكري يعقبه بالضرورة انتصار حضاري، وسياسي واقتصادي، فهذه الفكرة القرآنية لما انتصرت في الجزيرة العربية، عقبها انتصار حضاري شامل[1].

إن الأفكار إما أن تكون إلهية (الفكرة الدينية)، أو تكون نتاج العقل البشري الذي وضع لهذه الغاية، ولكن لكليهما وظائف ومهام هي:

أ- الأفكار هي الباعثة على الإقلاع بعد الركود: قد يكون المجتمع يعيش مرحلة بدائية، يسوده الجمود والتخلف، فإذا ما أدركته فكرة حية بناءه نهض، وأقلع يقول ابن نبي-رحمه الله-: "ذلك أن هناك مرحلة يكون فيها المجتمع بدائيا، فقير الوسائل فإذا ما أدركته فكرة جوهرية تستقطب روحه، اندمج في دورة التاريخ، واندمج جهده اليومي نحو مثل أعلى يجعل لأفكاره دورا وظيفيا"[2].

فالأفكار الدينية تحد من خطر الغريزة، وتربط الطاقة الحيوية بدور سامي في المجتمع والتاريخ، فهاهي الفكرة الإسلامية قد طوعت الطاقة الحيوية في المجتمع الجاهلي ليصبح مجتمعا متحضرا، وهذه الإيديولوجية السوفياتية تسمح للمجتمع في ستالينجراد أن يوقف زحف الجيش الهتلري خلال الحرب العالمية، وهذه الفكرة المسيحية تخرج أوروبا إلى مسرح التاريخ[3]

فمهمة الفكرة الدينية هي تغيير الإنسان فتضع قدرة تكيف الطاقة الحيوية على عتبة حضارة، ويمكن القول أن الأفكار الدينية هي أفكار تخص الإطار الأخلاقي فتنظم علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم، وبذلك تتكون شبكة العلاقات الاجتماعية

---

[1] مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. ص: 132.

[2] مكلة الأفكار. ص: 8.

[3] المصدر نفسه. : 40-48.

"فعلى عتبة حضارة ما ليس هو عالم الأشياء الذي يتبدل، بل بصورة أساسية عالم الأشخاص على أساس ميثاق جديد منزل كالقرآن الكريم"[1]، فحتى حينما تفقد هذه الأفكار فعاليتها في المجتمع فإنها تحتفظ بقوتها الدافعة، وهذا ما رأيناه حينما وصل العام الإسلامي إلى مرحلة ما بعد الموحدين، وما سادها من انحطاط وركود، فإن هذه الفكرة قد سمحت له أيضا بمقاومة العدوان الاستعماري ومكنته من استعادة استقلاله.

أما عن الأفكار التي تغير الأشياء، فإنها تصدر غالبا عن العقل البشري الذي وضع لهذه الغاية وهي إبداع منتجات الحضارة، وتطويع المادة، باستغلال وتوظيف كل الوسائل المتاحة في ذلك المجتمع.فدور مثل هذه الأفكار عملي في المجتمع بتوجيه النشاط في وسائله التقنية المتاحة.

ب- الأفكار مقياس لغني المجتمع أو فقره: يقرر مالك ابن نبي -رحمه الله- أنه: "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء بل بقدر ما فيه من أفكار"[2].

إن القوة الحقيقية للأمة في امتلاكها للأفكار البناءة الحية، لأنها بهذه الأفكار تسيطر على عالم الأشياء، وتوظف ما لها من وسائل متاحة بفضل هذه الأفكار، كما أنها تعتبر الزاد المنقذ إذا ما تعرضت هذه الأمة لنكبة طبيعية أو حربية. .إلخ فيقول: "ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة، كأن يحدث فيضان، أو تقع حرب فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا، أو تفقده إلى حين ميزة السيطرة عليه، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ماحقا، أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنه قد أنقذ كل شيء، إذ أنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص: 47، 58.

[2] المصدر نفسه: ص 37.

[3] المصدر نفسه، ص: 37.

فالزاد الحقيقي، وثروة المجتمع هي الأفكار لا الأشياء، فإننا نرى المجتمع الإسلامي منذ انحطاطه يمتلك من الوسائل والثروات المتنوعة الكثير، ففقره إذن ليس من جانب الوسائل والطاقات والثروات المادية، ولكن فقره في جانب الأفكار التي يوظف ويستغل بها وسائله المتاحة. وكما يقول ابن نبي-رحمه الله -: "فالمجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنما بافتقار للأفكاريتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه الوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية"[1].

إن للعالم الإسلامي أراضي خصبة والأرض هي أصلح وسيلة لإقلاع مجتمع لينتقل من مرحلة البدائية إلى مرحلة أخرى، فهذه أراضي العراق وإندونيسيا من أكثر أراضي العالم خصوبة إلا أنهما لم يقلعا. فهذا دليل على وجود فاقة حقيقية في الأفكار[2].

والشيء نفسه يقال فيما يملك المجتمع الإسلامي من ثروات معدنية متنوعة، ولكنه لا يمتلك صناعة متطورة، فهو مضطر دائما إلى استيراد منتجات الحضارة الغربية التي لها ثروة في عالم الأفكار مكنتها من استخلاص أقصى ما يمكن من فوائد من وسائلها المتاحة.

وهكذا من كل ما سبق نرى ما للفكرة من أهمية في الإقلاع الحضاري فهي التي تغير الإنسان، وهي التي تغير الأشياء. ولكن هناك من الأفكار ما يعمل عكس ذلك فمهمتها التخريب، والهدم بعد البناء. وهذه الأفكار هي:

1 - الأفكار الميتة .

2- الأفكار المميتة أو الأفكار القاتلة.

[1] مشكلة الأفكار، ص: 36.

[2] المصدر نفسه، ص: 37.

أما الأفكار الميتة فهي الأفكار التي انحرفت عن مثلها الأعلى، أو أنها ما يجول بأنفسنا من أفكار فقدت الحياة، ففكر ما بعد الموحدين هو الذي ينتج الأفكار الميتة[1].

إن كل فكرة فقدت فعاليتها في عالم الأشخاص، أو الأشياء تصبح فكرة ميتة، وإن الأفكار الميتة هي التي تجعل المجتمع قابلا للاستعمار، وهي أشد خطرا على المجتمع من الأفكار المميتة ذلك أنه وكما يقول مالك بن نبي -رحمه الله-: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي " أفكارا ميتة" تمثل خطرا أشد من خطر الأفكار القاتلة، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل إنها تكون ما لم نجر عليها عملية تصفية تكوّن الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه"[2].

وهكذا فالعادات الرجعية، والشخصيات الإقطاعية، وكل الأمراض الاجتماعية التي نجدها في العالم الإسلامي كلها تمثل الأفكار الميتة، لأنها تجعل العالم الإسلامي قابلا للاستعمار.

أما الأفكار القاتلة أو المميتة فهي الأفكار المستوردة من حضارة أخرى، أو هي كل فكرة فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الأصلي[3]. فالمثقف الذي له الأفكار الميتة، تجعله يمتص الأفكار القاتلة دون غيرها فعقلية ما بعد الموحدين وكأن على أعينها حجاب فهي لا ترى غير التافه من الأفكار فتستورد حتى الأفكار القاتلة. فتكون النتيجة هي التحلل

[1] المصدر نفسه، ص: 153، وكذلك كتاب: في مهب المعركة، مالك بن نبي (دار الفكر، دمشق، سوريا، تصويره عام 1986)، ص 129.

[2] المصدر نفسه، ص: 131.

[3] مشكلة الأفكار، ص: 153.

والانحراف؛ وكما يقول ابن نبي -رحمه الله-: "فكذا مرقص+ كذا مقهى+ كذا كلية+ كذا برلمان = تحللاً تاماً"

فأوروبا إذن تعطينا عناصر تحلل الأخلاق والمجتمع... لأننا بأفكارنا الميتة لا نر أفكارها الحية المحيية[1].

ثالثاً: مميزات فكر مالك بن نبي

والمقصود بها الخصائص التي طبعت فكره، والتي نلمحها في كل كتبه هذه الميزات جعلت أفكاره وطريقة طرحه للمواضيع المختلفة، وكيفية مناقشتها وتحليلها، تختلف عن طريقة باقي المفكرين ممن عاصروه أو ممن جاءوا بعده.

وإن أهم هذه الخصائص والميزات هي:

1- النزعة التحليلية: إن التأمل لفكر مالك بن نبي رحمه الله - سيجده لا يركن إلى فكره ولا يتبنى رأيا حتى يستوفي حقه من التحليل، والتفكيك، فمالك بن نبي - رحمه الله- له منهج متميز في الاستنباط، وكما قال عنه طه جابر العلواني: "وهو في تناولاته تلك يجمع بين صنعتي مهندس دقيق يعرف كيف يقوم بعمليات الهدم والتفكيك وكيف يتجاوزها بعد ذلك للقيام بمهمة البناء والتركيب، ملاحظا سائر المؤثرات ومختلف الأدوات وجميع الشروط"[2].

لقد كان ابن نبي -رحمه الله- ذا تفكير منهجي، ذو نزعة تحليلية رياضية نظرا لتخصصه في الهندسة، فكل المعادلات التي ترد في كتبه تترجم ثقافته الرياضية، التي ساعدته كثيرا أن يكون منهجيا، يحسن تنسيق أفكاره وترتيبها. فها هو يعترف بما حققه له هذا التكوين الرياضي فيقول: "لكن ربما أفيده من ناحية تنسيق الأفكار ويساعدني على ذلك الأسلوب الرياضي الذي انطبعت به، حتى كان أحيانا

[1] في مهب المعركة، ص: 133، 134.

[2] صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص: 18.

هذا الأسلوب نفسه موضوع نقاش حاد بيننا وذلك عندما ينتقد صديقي جفاف الفكر الهندسي"[1].

فهنا نجده يذكر أنه كان يتميز بتنسيق الأفكار في مناقشاته مع صديقه حمودة بن الساعي، الذي كانت له ثقافة واسعة.

إن قوة التحليل تجعل المفكر ينظر للفكرة من زوايا كثيرة، وهكذا لا يركن إلى فكرة حتى يدعمها بالحجج المنطقية، والتاريخية، والدينية ... إلخ.

إن مالك بن نبي المهندس الكهربائي لم يختف في جميع المناقشات والمحاضرات.. ومن حضر محاضراته، أو قرأ كتبه سيعرف الكثير من المصطلحات الفيزيائية والرياضية والكيميائية التي دخلت بفضله إلى حقل المشاكل الإنسانية.

وهكذا فإن التكوين العلمي والرياضي للمفكر جعله لا يقوم بسرد تفاصيل الأحداث والإطناب في ذلك، بل كان توجهه الأكبر إلى التحليل العميق، والملاحظة الدقيقة، مع صرامة المنطق، لذلك نجده في كل كتبه فيلسوف التاريخ، والمحلل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والنفسي والعارف بالأديان والجغرافيا ... فهو يوظف كل معارفه في هذه العلوم لتحليل الأحداث وعدم الاكتفاء بالنظر من زاوية ضيقة. يسعفه في ذلك كما أسلفنا تكوينه الرياضي المنهجي لأنه كان يبحث في أعماق الأشياء لا في مظاهرها السطحية.

2- النسقية: ونقصد بها عدم التناقض، والابتعاد عن خيانة المبادئ، فمالك بن نبي - رحمه الله - في كل كتبه حينما يؤمن بقضية يظل يؤكد أهميتها في كل كتبه ولا يتراجع عنها، وإذا ما توصل إلى فكرة معينة يسعى بكل ماله من معارف إلى تدعيمها والتدليل على صحتها وأهميتها، فكل كتبه تبرز إيمانه بالحضارة والثقافة، والأفكار... ولا نجد كتابا من كتبه يتخلى فيه عن هذه الأفكار. فأفكار ابن نبي - رحمه الله - متناسقة لا تعارض بينها ولا تراجع ولا خيانة لمبادئه .

[1] شاهد للقرن، ص: 252.

3- الواقعية: حينما كان مالك بن نبي رحمه الله - يعالج قضية الحضارة، الثقافية، أهمية الأفكاروقيمتها في المجتمع وخطرها كذلك، وحينما تعرض للصراع مع الغرب ... إلخ لم يكن يسبح في الخيال، أو يتوهم، لقد كان ينطلق من واقع عاشه، ومن تجارب شخصية مريرة هي نموذج لما يعيشه العالم الإسلامي. وكما يقول عبد العزيز الخالدي: ابن نبي في الواقع ليس كاتبا محترفا، أو عاملا في مكتب منكبا على أشياء خامدة من الورق والكلمات، ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية والاجتماعية، وتلك هي المأساة التي شعر بها ابن نبي بما فيها من شدة، وبكل ما صادف في تجاربه الشخصية من قساوة ".[1].

لقد كان الواقع يدعوه للتأمل، والتحليل، والبحث عن حلول لأمة غمرها الجهل، والفقر، أو القابلية للاستعمار، فكان نتيجة ذلك الاستعمار المباشر.

إن واقعية ابن نبي-رحمه الله- هي التي جعلته يغير مساره، من مهندس كهرباء إلى باحث اجتماعي لأنه كان يعرف أن أمته بحاجة إلى بناء الإنسان أكثر من حاجتها إلى بناء الأشياء. لقد كان انطلاق ابن نبي -رحمه الله- من المشكلات التي اعترضت سبيله واستحوذت على فكره فتفاعل معها محللا ومقترحا الحلول المناسبة.

لم تكن الكتابة هواية لمالك بن نبي-رحمه الله- ولكنه كان يعالج قضية وطنه الجزائر والأمة الإسلامية لذلك فقد كان يقول: لست كاتبا بالمعنى المهني الذي صاحبه يبحث الموضوع ليخرجه للناس، ولكني أشعر بوضع يحيط من حولي فيدفعني إلى دراسته وإخراجه للناس". [2].

---

[1] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص6

[2] _ نصر الدين عزوني، منهج تفسير مالك بن نبي للقرآن الكريم، رسالة ماجيستير، كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية، 2001، ص28

4- تعدد زوايا النظر: إذا أردنا أن نحكم على مالك بن نبي رحمه الله - من خلال كتاباته، فسوف نجده فيلسوف التاريخ، وعالم الاجتماع، والمحلل النفسي والاقتصادي والسياسي، والعارف بالدين الإسلامي، وغيره من الأديان، ضف إلى ذلك معرفته الرياضية والهندسية ... إلخ. إن معرفة وإطلاع مالك بن نبي -رحمه الله- على كل هذه العلوم جعلته ينظر إلى القضايا التي يعالجها نظره العالم المطلع، ذو المعرفة الشمولية. فكان يحلل الأفكار بناء على هذه المعارف، وإذا ما استقر رأيه على فكرة ما، دعمها بالجمع والبراهين من كل هذه العلوم.

لقد كان -رحمه الله- يبحث في كل قضايا الأمة الإسلامية ومشكلاتها النفسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية ... إلخ.يقول عمر مسقاوي: وبالرغم من زمن طويل يفصلنا عن أفكار هذه المحاضرات، فإنها ما تزال تخاطبنا في مسيرتنا نحو المستقبل وما تزال تأملات مالك بن نبي في صميم المشكلة، تحفزنا في السياسة كما في الاقتصاد والاجتماع إلى تأصيل المنهج وبناء الثقافة القائمة على توظيف الطاقات الإنمائية في خدمة المجتمع". [1].

5- الحرص على سلامة التشخيص: حرص مالك ابن نبي-رحمه الله- على تشخيص مشكلات العالم الإسلامي، مجتنبا الوقوع في التناقض المنطقي في فهم المشكلات الواقعية، فهو يرى بضرورة تشخيص المشكلات جيدا، لأن مشكلات الحضارة تتطلب أن يمعن التفكير فيها حب منطق الأشياء، وليس وفقا لعادات فكرية توجه فكرنا إلى اتجاه لا يناسب علاج المشكلات التي تواجهنا.

كما حرص-رحمه الله- على تشخيص أمراض العالم الإسلامي المختلفة فقد حرص كذلك على تشخيص الحلول المناسبة التي كان يدعمها بالأدلة المختلفة والبراهين.

[1] _ مالك بن نبي، تأملات، دمشق، سوريا، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، 1991، ص4

رابعاً: وضع مؤلفات مالك بن نبي في إطارها المعرفي

بعد عرضنا لقراءة شاملة في كتب مالك بن نبي-رحمه الله- ومن خلالها تعرفنا على محاور تفكيره من كل ذلك تبين لنا ما يلي :

1- إن كل أبحاث مالك بن نبي -رحمه الله- تدور حول فقه التخلف والانحطاط الحضاري من جهة، وفقه البناء والتجديد الحضاري من جهة أخرى.

2-استخلاص السنن الفاعلة في الظاهرة الحضارية في حالة قوتها وامتدادها وتألقها وحالة ضعفها وانحسارها وأفولها.

3- الاعتماد على تاريخ وواقع الأمم لاستخلاص القوانين الثابتة ويركز على ماضي وحاضر المجتمع الإسلامي، لأن كل هدفه كان إعادة بعث الحضارة الإسلامية بعد الانحطاط والتقهقر الذي أصابها.

4- تفحص المجتمع الإسلامي، والحركات الإسلامية بقراءة الأحداث الماضية والحاضرة ووضع كل ظاهرة في إطارها الصحيح مع تفسيرها، وتحليلها، وتوقع ما سيكون في المجتمع الإسلامي مستقبلا. فدراساته تقويمية، إرشادية للمجتمع والدولة، وذلك بتشخيص الأمراض الحقيقية في المجتمع والإرشاد إلى طريقة حلها ببناء ثقافة توجه فيها القيم الأخلاقية، والمنطق العملي، والذوق الجمالي، والصناعة . وكذلك بتوجيه العمل، والمال. فالمجتمع الذي يتمكن من بناء عالم ثقافي منسجم مع هدفه الحضاري، ويحسن استثمار إمكانياته البشرية والمادية على ضوء ذلك، هو المجتمع الذي يسير نحو الأمام وتتضاعف إنتاجيته الحضارية، وبالتالي يكون منبع إشعاع حضاري.

إذن فكتابات مالك بن نبي رحمه الله - كلها تدور حول المجتمع، وطريقة نشأته، وأمراضه، والحضارة وكيفية الوصول إليها، والثقافة وأن توجيهها وحل مشكلتها هو حل لمشكلة الحضارة، والأفكار ودورها ووظيفتها في المجتمع وكذلك خطرها ومساهمتها في التطور أو الانحطاط ... مع إعطاء نماذج تطبيقية من

الحضارة الإسلامية (نشأتها، تطورها، انحطاطها، كيف تستعيد مجدها ومكانها الريادي ...) وكذلك أمثلة من الحضارة الأوربية (كيف نشأت، كيف تطورت ... واقعها ...).

فمالك بن نبي -رحمه الله- كان ينطلق من الواقع، ومن تاريخ الأمم فيصل إلى استخلاص للقوانين الثابتة التي تحكم الحضارة من شروط بنائها، عوامل انحطاطها ... وكل طروحاته أكدها الزمن ولم ينقضها.

إن كل مطلع على اهتمامات مالك بن نبي-رحمه الله- إذا كانت له معرفة بمباحث كل علم من العلوم، واهتماماته، وموضوعاته..و منهج كل علم من العلوم . فإنه لن يتردد في تصنيف مؤلفات مالك بن نبي-رحمه الله - في دائرة علم الاجتماع.

ذلك أن مباحث علم الاجتماع وموضوعاته هي :

1- نشأة المجتمعات، وتنظيمه... ودراسة السلوك الإنساني، وتحليل الظواهر والعلاقات الاجتماعية التي توجد بين الأفراد والمجموعات التي ينتمون إليها، وبين المجتمعات بعضها ببعض ... كما يمكنه التنبوء باتجاه وطبيعة بعض المشاكل والأمراض والظواهر الطبيعية ... ويمكن لهذا العلم من أن يعمم النتائج والقوانين التي تجمعت لديه على حالات أخرى مماثلة[1].

2- كما يدرس هذا العلم التغير الاجتماعي، وعوامله دراسة علمية أي دراسة المجتمع كيف ينتقل من وضع إلى وضع آخر مختلف.

3- دراسة الثقافة لزيادة فهم الأفراد لما يحيط بهم من أمور حياتهم الاجتماعية[2].

---

[1] مدخل إلى علم الاجتماع، حسن همام وغيره(دار القلم، الإمارات العربية، دبي ط3.د.ت) :12-57-69.

[2] المرجع نفسه. 69-70.

إن علم الاجتماع يعتمد على الدراسة العلمية للمجتمعات، تلك الدراسة التي تعتمد على الملاحظة، وتقرير الواقع، ثم المقارنة والتفسير، فالعالم الاجتماعي يصف أولا الظاهرة التي تقع تحت حسه، ثم يقارنها بغيرها لإيجاد أوجه الشبه أو الاختلاف ... ثم يحاول أخيرا أن يصل إلى التفسير والتعليل العلمي للظواهر التي يدرسها، ويستخلص القوانين التي بمقتضاها تلك الظواهر[1].

وهكذا فبعد عرض مواضيع علم الاجتماع، ونوعية أبحاثه، وجدنا من ضمنها البحث في المشكلات والأمراض الاجتماعية، ومحاولة إيجاد الحلول، وكذلك البحث في الثقافة، واستخلاص القوانين والقواعد الثابتة في تطور المجتمع أو انحطاطه، وهذه هي المواضيع التي كان يبحث فيها مالك بن نبي – رحمه الله- من مشكلة الحضارة، ومشكلة الثقافة، ومشكلة الأفكار، وتشخيص الأمراض الاجتماعية التي يراها في المجتمع الإسلامي ليقترح الحلول.

لقد كان مالك بن نبي – رحمه الله- يلاحظ، فيشخص ما يراه، ثم يحلله، ويستنتج النظريات والقواعد، معتمدا على الحجج المنطقية، والشواهد التاريخية، وكذلك كان يستشهد بالنصوص القرآنية، والحديثة لتقوية آرائه، وملاحظاته.

كانت لآراء مالك بن نبي –رحمه الله- قوة لم تنل من مصداقيتها السنين الطوال، بل لقد كشفت الأيام عن صدق طروحاته وآرائه، ذلك أنه كان ينطلق دائما من الواقع، فيوظف في فهمه كل المعارف من حقائق تاريخية، أو نظريات فلسفية أو نفسية، واقتصادية ... ضف إلى كل هذا معرفته للدين الإسلامي، ولغيره من الأديان الأخرى.

وخلاصة القول إن مالك بن نبي – رحمه الله- في دراساته الاجتماعية كان يمثل عالم الاجتماع الذي يبني نظرياته بتثبت وتروي، فلايستقر على فكرة حتى يجد لها من الحجج والبراهين ما يدعم رأيه. لذلك فقد كان في تحليله للماضي

[1] مبادئ علم الاجتماع، محمد بدوي . (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1986م) . ص:7.

والحاضر فيلسوف التاريخ، والمحلل الاقتصادي، والنفسي، والمهندس الرياضي، والعارف بالأديان، فكان يوظف معارفه في كل هذه العلوم ليستشهد بها ويدعم بها أفكاره ونظرياته.

الفصل الثاني:
البعد الاجتماعي للحديث النبوي حسب المواضيع التي وُظف فيها

أولا: قضية المرأة.

يرى مالك بن نبي رحمه الله أن مشكلة المرأة في المجتمعات الإسلامية هي مشكلة الفرد في المجتمعات المسلمة، بغض النظر عن جنسه، وهو يرى المرأة أحد قطبي المجتمع وقطبه الثاني الرجل، وحين تعالج مشكلة المرأة يجب أن لا نحلها دون التفكير في المجتمع، فمن الخطأ أن نجري مقارنة بين المرأة والرجل لنخرج بنتائج كمية تشير إلى قيمتها في المجتمع، أما الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق المرأة سواء بالدفاع عن تحررها أو بإبقائها بعيدة عن المجتمع فإن دافعها جنسي. والذين يدعونها لتقليد المرأة فإن المرأة هناك ليست في وضع حسن لنقلدها، فإن المجتمع الذي أجبرها على دخول المصنع قد أفقدها أنوثتها، فصارت صورة مشوهة لا هي امرأة بكل أنوثتها ولا هي رجل، وتضرر المجتمع بزهدها في الأمومة بفقدان العلاقة الجنسية للقدسية داخل رباط الأسرة التي تضمن لنا استمرار النوع البشري الذي صار مهددا في أوروبا. وقد دعا مالك بن نبي إلى تخير الحركات النسوية إلى النساء طيبة الأعراق، حتى يفكرن في مستقبل المجتمع، قبل تفكيرهن في مستقبل المرأة .

خلق الله تعالى سيدنا آدم (الممثل لجنس الذكور) قبل السيدة حواء، تهيئة له للقوامة التي هي مسؤولية كبيرة نحو المخلوق الذي سيخلقه الله تعالى فيما بعد، فالسبق في الخلق، لأجل الشعور بالمسؤولية اتجاه من يأت بعده، ثم خلق الله تعالى السيدة حواء (الممثلة لجنس الإناث)خلقها جزءا من سيدنا آدم عليه السلام ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء1)، هي السيدة حواء لم تخلق خلقا مستقلا، بل جزء من سيدنا آدم عليه السلام من ضلعه، ليشعر بمسؤوليته عليها فهي جزء منه وتأخرت عليه في الخلق، أي منافسة بينهما ؟ لو كانت العلاقة علاقة منافسة لخلقا في نفس اللحظة، ولخلقت السيدة حواء خلقا مستقلا

.الإنسان يشعر بالمسؤولية اتجاه من هم جزء منه، ولا يشعر معهم بالمنافسة، وقد كان أول دور تمثلته المرأة في حياتها هو دور الزوجة لقدسية العلاقة ولعظم المسؤولية.

لو كانت العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة منافسة، لاقتضت الحياة الاستمرار بأحدهما في إطار التدافع، لكن الحياة تقتضيهما معا، لأن استمرار النوع البشري ورسالة الاستخلاف متوقفة على وجود كليهما، ولن يكون هناك جنس بشري في وجود أحدهما فقط.

تحملت المرأة المسؤولية مع الرجل فهم سواء في التكليف بالعبادات، وكرمها الله تعالى، وميزها عن الرجل بصفات جعلتها مميزة في جانب الأنوثة والعاطفة وخصائص تميزها عن جنس الرجل، برقتها ولطافتها، هذه الرقة واللطافة والأنوثة جعلت المرأة تُظلم وتتعرض لأنواع الظلم على مر حياة البشرية، خاصة قبل الإسلام، إلى درجة الحكم عليها بعدم الإنسانية والتخلص منها بالوأد، ومصادرة كل حقوقها ابتداء من الحق في الحياة، ووُرثت كما يورث المتاع والسلع والتركات، وتم المتاجرة بها وبعرضها وتم تبادلها، و نُظر إليها على أنها سبب البلاء والمصائب والعقاب، وهي شر لا بد منه..الخ

وجاء الإسلام، وجاء معه التكريم والرفعة، فما من شريعة أكرمت المرأة أكثر من الإسلام، لقد سمّى القرآن الكريم سورة باسمها هي سورة النساء، و سمّى أخرى باسم أفضل سيدات أهل الجنة، سورة مريم عليها السلام، وكان القرآن الكريم ينزل في حوادث موضوعها النساء كسورة النور والمجادلة.

وربط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كرم أخلاق المسلم بإكرامه للمرأة:" ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم"[1]، وأوصى بالنساء في خطبة الوداع"

[1] _ حديث " ما أكرمهن إلا ..." رواه ابن عساكر

استوصوا بالنساء خيرا"[1] وربط بين خيرية المسلم وعلاقته بأهله حين قال:" خيركم خيركم لأهله"[2] ونبّه إلى ضرورة مراعاة اللطف مع المرأة:" رفقا بالقوارير"[3]

أعاد الإسلام للمرأة الحق في الحياة، واهتم بالمرأة وأعلى من شأنها، "فالرجال شقائق الرجال"، ووصفهن الرسول صلى الله عليه وسلم "بالمؤنسات الغاليات"[4]، و شبههن" بالقوارير"، التي يجب أن يترفق بها، و جعل تربية البنات ورعايتهن بابا من أبواب الجنة، ووسيلة للتقرب إلى الله تعالى، كانت أخر كلماته صلى الله عليه وسلم الوصية بالنساء وحسن معاملتهن، بل ذهب صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة تقديم الأم في العطف والرعاية والتكريم وجعل لها" ثلاثة حقوق مقابل حق واحد للأب". [5]

عالج مالك بن نبي وهو المفكر الذي شُغل طول حياته بدراسة المشكلات التي تؤرق العالم الإسلامي، وقد عالج من خلال مؤلفاته مشكلة المرأة بحكم أنه يرى أنها عنصرا فعالا في سير حركة المجتمع، ودرس مشكلتها، والإشكالية التي تطرحها الدراسة: كيف عالج مالك بن نبي مشكلة المرأة ؟ ومن أي زاوية تمت المعالجة؟

1_ مكانة المرأة

يدعوا الكثيرون إلى تحرير المرأة، ويعمد آخرون إلى عقد مقارنات بينها وبين الرجل ليتوصلوا إلى نتائج كمية تشير إلى قيمة المرأة في المجتمع .... إلخ، إلا أن مالك بن نبي – رحمه الله – لم يكن لا من هؤلاء ولا من أولئك، فكان موقفه من قضية المرأة مبنيا على نص حديثي يقول فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم -: «النساء شقائق الرجال» .[6]

---

[1] _ حديث" استوصوا بالنساء .."رواه الشيخان

[2] _ حديث" خيركم خيركم لأهله"رواه الترمذي

[3] _ حديث"رفقا بالقوارير "رواه مسلم

[4] _ حديث"فإنهن المؤنسات الغاليات" رواه الطبري

[5] _ حديث"أمك ثم أمك ثم أمك"رواه مسلم

[6] حديث «النساء شقائق ...» رواه أحمد .

فهو يرى أن " مشكلة المرأة ليست شيئا نبحثه منفردا عن مشكلة الرجل، فهما يشكلان في حقيقتهما مشكلة واحدة هي مشكلة الفرد في المجتمع .." [1]

إن المرأة والرجل يكونان الفرد في المجتمع، فالمرأة شق والرجل شقه الآخر، لذلك فمشكلة المرأة يجب أن تحل حلا يكون الاعتبار الأول فيه لمصلحة المجتمع، فالرجل والمرأة قطبا الإنسانية ولا معنى لأحدهما بغير الآخر . [2]

فإذا كان الرجل قد أتى في مجال الفن والعلم بالمعجزات، فالمرأة قد كونت نوابغ الرجال، فهذه سمية أم عماربن ياسر تُعذب لإسلامها، ويمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالساحة فيستوقفه المنظر المؤلم فيقول لهم: « طوبى لكم آل ياسر فإن مصيركم الجنة »

وهكذا فإن للمرأة دور في التاريخ كيف لا، وكل قضية جليلة تضع بصماتها في مصير الإنسانية، وتترك صداها في التاريخ ترسم على مركب الزمن وجوها كريمة تمثلها، ووجه المرأة ليس أقلها بروزا ووضوحا، بل قد تجد في أنوثته الخاصة لونا مثيرا ومؤثرا لا تجده في غيره. [3]

فإذا كانت اليوم توجد حركات نسائية فعليها أن تختار النبات الطيب، كي لا تعوقها فتياتها، هناك أسمدة تعين على إنبات النبات الطيب، وهناك أماكن لا تنبت إلا العفن، فعلى الحركة النسائية أن تختار لغرس جذورها تلك التربة النقية الطاهرة التي أنبتت لالة فاطمة نسومر، وسمية، وفضيلة سعدان ....الخ وهذا ما يذكرنا بوصية رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: « إياكم وخضراء الدمن، قالوا وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء » [4]

---

[1] شروط النهضة، ص 174.

[2] المصدر نفسه، ص: 176-177.

[3] _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ، دمشق، سوريا، الجزائر، دار الفكر، ، ط2، 1988، ص: 63-64.

[4] حديث «إياك وخضراء ....» روي في كنز العمال .

إذن فالمرأة كائن لا يعيش وحده، ويطرح مشكلاته على هامش المجتمع بل هي أحد قطبيه، والرجل قطبه الآخر، ولا يمكن لقطبين أن ينفصلا .[1]

لكل هذا فيجب أن تعاد للمرأة الكرامة التي وهبها لها الإسلام، عندما أنقذها من عادات الجاهلية القاسية، ولكن تعود لها كرامتها لتكون المرأة السيدة في المجتمع التي توحي إلى الرجل بالعواطف الشريفة، لا الفارسة التي تسيطر عليه.[2]، وتسيطر عليه هنا تعني المنازعة في القوامة.

فمالك بن نبي – رحمه الله – لا يذهب مذهب من يحتقرون المرأة فيقللون من شأنها، بل يرى أن لها دورا في المجتمع كما للرجل دوره، فإذا تخاذلت عن القيام به، أو حرفت عن وظيفتها الحقيقية سار المجتمع إلى الانتحار .

2_ بحث مشاكل المرأة يقتضي بحث مشكلة الرجل أيضا:

مشكلة المرأة في فكر مالك بن نبي لا نبحثها منفردة عن مشكلة الرجل، فهما يشكلان في حقيقتهما مشكلة الفرد في المجتمع.بعيدا عن النظرة العاطفية لؤلئك الذين نصبوا من أنفسهم ذادة عن حقوق المرأة من كتاب الشرق والغرب[3].

3_من الخطأ مقارنة المرأة بالرجل:

وليس من الجدية عقد مقارنة بين المرأة والرجل، لنخرج بنتائج كمية تشير إلى قيمة المرأة في المجتمع، و إنها أكبر أو أقل من الرجل أو تساويه، فليست هذه الأرقام إلا افتئاتا على حقيقة الأمر، ومحض افتراء.

4_ دوافع المناداة بتحرير المرأة

ويرى مالك بن نبي أن الأقاويل التي تدعو إلى تحرير المرأة من أدعياء تحريرها، أو الذين يطالبون بإبعادها من المجتمع إلا تعبيرا عن نزعات جنسية لا شعورية .فالدوافع النفسية العميقة التي تدفع كلا الطرفين إلى القول بآرائه، وحينئذ لن

---

[1] بين الرشاد والتيه، ص: 66.

[2] _ مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص: 100.

[3] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق، سوريا، دار الفكر، ط3، 1969، ص184.

يصعب علينا معرفة هذه الدوافع على حقيقتها، وأنها جميعها تصدر عن شيء واحد هو: دافع الغريزة الجنسية طبقا لتحليل فرويد.فهذه النقطة كانت مبدأ الانطلاق لكلا الفريقين، غير أنهما سارا بعد ذلك في طريقين مختلفين.ولقد يكون هذا التعليل ظاهرا بالنسبة لأولئك الذين يطالبون بخروج المرأة في زينة فاتنة، إذ في ذلك ما يوقظ غرائزهم، أو يرضي شهواتهم.

غير أن أولئك المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع، والمؤمنين بضرورة إبقائها في سجنها التقليدي قد يبدو في تعليل الدافع النفسي لموقفهم بأنه جنسي، بعض الغرابة، بيد أن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول حينما نعلم أن ليس لتفكيرهم من مبرر منطقي، إلى ما يتعللون به من الحفاظ على الأخلاق، الذي يختفي وراءه مغزى التمسك بالأنثى، فالغريزة هنا تكلمت بلسان آخر.

وإن كان الكلام عن الغريزة واضحا فيمن يريدون للمرأة أن تظهر في صورة تلفت إليها الغرائز، أما عند من يرون أن لا تخرج في هيئة يقبلها الخلق فإنه من العسير أن نرى دور الغريزة في مثل ذلك التفكير، ولكن قد يكون منعها من الخروج مبرر خفي مما يستقر في نفس الرجل من دافع جنسي من الخوف على أنثاه أن يشاركه فيها غيره، وإذن فهو يدافع على أنثاه، وهنا يظهر جليا ذلك الاعتبار الجنسي في تفكيره.و هكذا نرى أن كلا الفريقين قد يصدر رأيه عن اعتبار واحد هو الغريزة، ولا أمل لنا في أن نجد آرائهما حلا لمشكلة المرأة[1].

5: حقوق المرأة :

مشكلة المرأة لكي تحل يجب أن تصفى من مثل هذه النزعات ثم تحل حلا يكون الاعتبار الأول فيه لمصلحة المجتمع، فالمرأة والرجل يكونان الفرد في المجتمع،

[1] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 185_186

فهي شق الفرد، كما أن الرجل شقه الآخر، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «النساء شقائق الرجال» .[1]

والله تعالى خلقهما من نفس واحدة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء1).

المرأة والرجل قطبا الإنسانية، ومعنى لأحدهما بغير الآخر، فلئن كان الرجل قد أتى في مجال الفن والعلم بالمعجزات فإن المرأة قد كونت نوابغ الرجال.

لذا فمالك بن نبي يرى أنه سيتناول القضية بعيدا عن الأناشيد الشعرية التي تدعو إلى تحرير المرأة، فالمشكلة لا تتحدد في الجنس اللطيف فحسب، أو في بنات المدن فقط، أو في بنات الأسر الراقية فحسب، بل هي فوق ذلك تتعلق بتقدم المجتمع وتحديد مستقبله وحضارته[2]. لذلك يرى مالك بن نبي أنه علينا أن نتوقف على العزف على حقوق المرأة ونحن نعالج مشكلاتها، بل يجب أن لا نمنح المرأة حقوقا ليست في صالح المجتمع.

6: حجاب المرأة :

[1] حديث «النساء شقائق ...» رواه أحمد .

[2] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص177

وإذا تساءلنا هل يجب نزع الحجاب ؟ أو هل يسوغ للمرأة التدخين ؟ أو التصويت في الانتخابات ؟ وهل يجب عليها أن تتعلم؟فينبغي أن لا يكون جوابنا عن هذه الأسئلة بدافع من مصلحة المرأة وحدها، بل بدافع من حاجة المجتمع وتقدمه الحضاري، إذ ليست الغاية من البحث في اشتراكها في هذا المجتمع إلا الإفادة منها في رفع مستوى المرأة ذاتها، وإذن فليس من المفيد لنا أن ننظر إلى مشكلتها بغير هذا المنظار.

ورد مالك بن نبي على ذوي الأذواق الرقيقة الذين يرون أن هذه الرؤية تجعل المرأة تذوب في المجتمع، ولكن الرد عليهم بأن إعطاء المرأة حقوق على حساب المجتمع معناه تدهور المجتمع، أليست هي عضوا فيه؟ فالقضية ليست قضية فرد وإنما هي قضية مجتمع. [1]

7_تقليد المرأة الغربية :

لقد بدأت المرأة المسلمة التي كانت تلبس إلى زمن قريب (الملاية) في إفراط، تسلك في سيرها الاجتماعي الطريق الذي رسمته أوروبا لنسائها، متخيلة أن في ذلك حلا لمشكلتها الاجتماعية .

يتأسف مالك بن نبي بأن تكون نساء الشرق بهذه البساطة حين يرين مشكلتهن قد حلت بمثل هذا التقليد لنساء أوروبا، فإن مشكلة المرأة مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية، فلا يكون حلها إذن بمجرد تقليد ظاهري لأفعال المرأة الأوروبية، دون ما نظر إلى الأسس التي بنت عليها المرأة الأوروبية سيرها. [2]

فهل من المفيد للمرأة المسلمة أن نجعلها في مركز تشبه فيه أختها الأوروبية ؟لقد اتبعت هذه الطريق بعض البلاد الإسلامية، وهي تمثل في نظرها حركة

[1] _ المصدر نفسه، ص178

[2] _ المصدر نفسه، ص179

التجديد في حياة المرأة، التي ما زال يدعو إليها المجددون، ، ولكننا بشيء من النظر نرى أن انتقالنا بالمرأة من متحجبة إلى امرأة سافرة تطالع الصحف وتنتخب، وتعمل في المصنع لم يحل المشكلة، فهي لا تزال قائمة، وكل الذي فعلناه أننا نقلنا المرأة من حالة إلى حالة، وسنرى عما قريب أن انتقالنا هذا عقّد المشكلة بعد أن كانت بسيطة، فليست حالة المرأة الأوروبية بالتي تحسد عليها، فظهور المرأة الأوروبية في مظهر لا يخاطب في نفس الفرد إلا غريزته، أثار أخطارا جديدة، كنا نود أن يكون المجتمع بمنجاة منها، فمشكلة النسل في البلاد الأوروبية وصلت إلى حالة تدعو أحيانا إلى الرثاء، إذ أنها فقدت تنظيمها الاجتماعي، بحيث جعلت المجتمع الأوروبي وقد انمحت منه معاني التقديس للعلاقات الجنسية، يعتبر هذه العلاقات تسلية للنفوس المتعطلة، وبذلك فقدت وظيفتها من حيث هي وسيلة لحفظ الأسرة، وبقاء المجتمع. [1]

ومن هنا نجد نذيرا جديدا للذين يجعلون من أوروبا مثلهم الأعلى في كل تجديد، فإن مشكلة المرأة الأوروبية ما زالت خطيرة، خطيرة حتى في ذهن المرأة ذاتها، وفي تصورها لنفسها.

ويمكن أن نرى خطورة هذه المسألة في أحد مظاهر حياتها في أوروبا، أعني " المودة" فالزي الذي تختاره المرأة لنفسها دليل واضح على الدور الذي تريد تمثيله في المجتمع وتمثله فعلا، فقد كانت المرأة الأوروبية إلى عهد قريب تلبس اللباس اللطيف من الدانتيلا، تستر به مع أنوثتها سرها المكتوم إلى أخمص قدميها، وتتخذ من حيائها حاجزا يمنعها من التردي في الرذيلة، فكانت بردائها هذا خير مثل للرقة والأدب في المجتمع، إذ كانت السيدة الجديرة بكل احترام، الزوجة الصالحة التي تمسح بيديها الرقيقتين عن نفس الزوج متاعب العمل. [2]

[1] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص180

[2] _ المصدر نفسه، ص181

غير أنها أصبحت اليوم تلبس اللباس الفتان المثير، الذي لا يكشف عن معنى الأنوثة، بل عن عورة الأنثى، فهو يؤكد المعنى الجسدي الذي يتمسك مجتمع ساده الغرام باللذة العاجلة.

و على نقيض هذا نجد امرأتنا المسلمة تلبس (الملاية)، فتسرف في ستر جسدها بشكل شاذ في بعض أنحاء بلادنا، معبرة عما يطبع مجتمعاتنا من الميل إلى الركود والتخلف، وهي من ناحية أخرى تعبر عما يراود نفوسنا أحيانا من رياء أو نفاق.

فالأمر يجري في كلتا الحالتين بين تفريط وإفراط، ومن الواجب أن نضع المرأة هنا وهناك حيث تؤدي دورها خادمة للحضارة، وملهمة لذوق الجمال وروح الأخلاق، ذلك الدور الذي بعثها الله فيه أما وزوجة للرجل. [1]

8_ مؤتمرات النساء:

[1] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص182

وحبذا لو أن نساءنا عقدن مؤتمرا عاما يحددن فيه مهمة المرأة بالنسبة لصالح المجتمع، حتى لا تكون ضحية جهلها، وجهل الرجل بطبيعة دورها، فإن ذلك أجدى علينا من كلمات جوفاء ليس لها في منطق العلم مدلول.

ذلك أن مالك بن نبي لا ير مشكلة المرأة بالشيء الذي يحله قلم كاتب في مقال أو في كتاب، ولكنه يرى أن هذه المشكلة متعددة الجوانب، ولها في كل ناحية من نواحي المجتمع نصيب، فالمرأة كإنسان تشترك في كل إنتاج إنساني أو هكذا يجب أن تكون، ولن يكون تخطيط حياتها في المجتمع مفيدا إلا إذا نظرنا إلى هذا المؤتمر بعين الاهتمام، بشرط أن يضم الوسائل الكفيلة بتناول المشكلة من جميع أطرافها، فيجب مثلا أن يضم بعلماء النفس وعلوم التربية والأطباء وعلماء الاجتماع وعلماء الشريعة وغيرهم، وحينئذ نقول أننا وضعنا المنهج الأسلم لحياة المرأة ولسوف

يكون هذا التخطيط حتما في صالح المجتمع، لأن العلماء والمفكرين فيه هم الذين وضعوه. [1]

9_ عمل المرأة

وتحديدنا لعمل المرأة في المجتمع جدير بالاعتبار، فمن المعلوم أن المرأة الأوروبية كانت ضحية هذا الاعتبار، لأن المجتمع الذي حررها قذف بها إلى أتون المصنع، وإلى المكتب، وقال لها:" عليك أن تأكلي من عرق جبينك" في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشؤومة، ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، ففقدت هي مخزن العواطف الإنسانية، والشعور بالعاطفة نحو الأسرة، وأصبحت بما ألقي عليها من متاعب العمل صورة مشوهة للرجل، دون أن تبقى امرأة .

[1] _ المصدر نفسه، ص183

وهكذا حرم المجتمع من هذا العنصر الهام في بناء الأسرة، وهو العنصر الأساسي فيها، وجنت أوروبا ثمار هذه الأسرة المنحلة المشكلات من نوع جديد. [1]

10_ تعدد الزوجات:

وهناك شيء جدير بالإثارة وهو تعدد الزوجات، هل تعدد الزوجات أفضل من الاقتصار على زوجة واحدة ؟أم العكس؟

ويرى مالك بن نبي أننا لا نستطيع أن نبحث هذه المشكلة بعيدا عن واقع المجتمع، بحث لا نغفل تفوق عدد النساء الرجال في غالب الظروف، وما يجر ذلك على المجتمع من مشكلات.و كذا الأرامل والمطلقات .

11_ مآلات تطور المرأة :

إن دارس الاجتماعيات يدرس الأشياء كما هي فحسب، بل هو يحاول أن يدرك ما ستؤول إليه أيضا..ولذلك فحين نرى المرأة المسلمة تسير متطورة في زيها ومسلكها نتساءل ؟ إلى أي وجهة تسير ؟

يرى مالك بن نبي أننا لا نعلم طريق المرأة إلى أين؟ولا نعرف هدفها؟لأن مجتمعنا يسير مستسلما للأيام والحوادث.

نرى المرأة مسلمة في تطور، ولكننا لم نشرع بعد في التخطيط الدقيق لجميع أطوارها، فنحن نراها في مظاهرها الجديدة فتاة في المدرسة، وفي الحركات الكشفية، وفي تسابق في الحياة العامة، عاملة ومولدة وطبيبة ومدرسة وعاملة في المصنع والاوتوبيس ونائبة..

ومهما يكن عجزنا كبيرا عن تخطيط مراحل تطور المرأة، فإنه يلزمنا عند أي تخطيط ألا نغفل بعض القضايا الجوهرية، كقضية "الحضور " أي حضور المرأة في المجتمع حضورا محسا بيّنا.

إن المرأة المسلمة إن لم تحضر في المجتمع وتعرف ما يحصل فيه وما يجري من تطورات فيه، ستدع المجال إلى امرأة أخرى تخلفها حتى في البيت الذي

[1] في مهب المعركة، مالك بن نبي . ص: 100.

تعتكف فيه، وقد ظهرت في مجتمعنا موضة التزوج بالأجنبيات، وهي نتيجة تباعد المرأة العربية عن المجتمع. [1].

من خلال بحث مالك بن نبي رحمه الله لمشكلة المرأة نجد أنه :

_ يدعو إلى عدم مقارنتها بالرجل لبيان حجم الأدوار المهمة التي تقوم بها، ذلك أن المرأة والرجل كل منهما خلق لأداء رسالة تناسب طبيعته.

_ يرى أن مشكلة الرجل والمرأة واحدة في العالم الإسلامي، هي مشكلة الفرد المتخلف عن الحضارة.

_ يشجع الحركات النسائية التي تتبلور في جمعيات، ويدعو إلى اختيار صاحبات المعدن الطيب اللواتي لا يشجعن المرأة على الانحراف على الأوار التي خلقت لأجل أدائها.

_ يدعو إلى إعادة الكرامة التي وهبها لها الإسلام، لتكون السيدة التي توحي للرجل بالعواطف النبيلة لا الفارسة التي تسيطر عليه.

_ إذا انحرفت المرأة عن المهمة التي خلقت لأجلها سار المجتمع إلى الانهيار.

_ بين الدوافع الجنسية لدعاة تحرير المرأة وللداعين إلى إبعادها عن المجتمع.

_ لا يجب منح حقوق للمرأة على حساب مصلحة المجتمع.

_ في الحجاب نراعي الذوق والجمال .

_ المرأة الغربية ليست في وضع يدعو المرأة المسلمة إلى تقليدها أو الحذو حذوها.

_ لا بد من التخطيط لسير المرأة في المجتمع، ورسم الأهداف والغايات .

_ تعدد الزوجات ننظر له من باب مصلحة المجتمع .

ثانيا: وزن الوقت:

لقد جعل مالك بن نبي – رحمه الله – الزمن عنصرا من معادلة الحضارة حين قال: الحضارة = إنسان + تراب + وقت [1].

[1] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 183

فالوقت هنا الذي يبني الحضارة إلى جانب العناصر الأخرى ساعات العمل أو الدقائق المنتجة، والساعات التي تصبح تاريخا، لأن ساعات الفراغ تتحول إلى عدم .وهذا ما عبر عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله: « إنما هي أعمالكم ترد إليكم » [2]

إذا الساعات إذا استغلها المجتمع ستتحول إلى إنتاج، وثروة، أما إذا لم تستغل فإنها تتحول إلى ساعات هاربة، ووقت ينتهي إلى العدم وكما يقول: ابن نبي – رحمه الله - :" فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي تعيش فيها كل الشعوب، والحقل الذي يعمل به ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها" [3]

إن هذا المعنى هو ما عبر عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله: « ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى علمك شهيد فاغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ... » [4]

ثالثا: الترابط بين القيم الأخلاقية والاقتصادية :

يرى مالك بن نبي – رحمه الله – أن لعمليتي الإنتاج والتوزيع أساسا أخلاقيا، أو كما يسميه الترابط بين القيم الاقتصادية والأخلاقية، وهنا يستخدم الحديث النبوي كشاهد على نظريته .

فإذا كانت الرأسمالية قد أهملت هذا الترابط بنظرتها الإباحية للاقتصاد، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يهمله، فها هو يعطينا في قصة المتسول الذي جاء يوما يسأله لقمة العيش، كان من حقه أن يأخذها من المجتمع بفريضة

---

[1] ميلاد مجتمع، ص: 29.

[2] حديث: « إنما هي أعمالكم ....» رواه مسلم .

[3] بين الرشاد والتيه . ص: 68 . وكذلك كتاب شروط النهضة . ص: 211-212.

[4] حديث: « ما من يوم يشق فجره ....» لم أجده في الكتب الحديثة .

الزكاة، ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – أدرى الناس بتطبيق الأحكام، كما كان إلى جانب ذلك أجود من الرياح السخية في الربيع لتقديم هذه اللقمة للمسكين الذي جاء يطلبها .[1]

إن أعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – تشريع وعبرة لأمته، لذلك فقد أشار على من حوله من الصحابة بتجهيز الفقير ليحتطب ويأكل من عمل يده، ويجسد هذا في قوله – صلى الله عليه وسلم -: « هذا خير لك من أن تجيء، المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة، لذي فقر مدقع، ولذي غرم مقطع، ولذي دمع موجع » .[2]

وكذلك يجسد هذا المعنى قوله – صلى الله عليه وسلم -: « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .[3]

إن تحليل الأبعاد الخلقية لهذه القضية، سوف يجعلنا نرى كيف يحل الرسول – صلى الله عليه وسلم – أزمة اجتماعية تعرض عليه في صورة متسول مسكين، فيحلها – صلى الله عليه وسلم – في نطاق الواجب بتقديمه على الحق . ما عبرنا عنها بلغة الاقتصاد، فإنه يفضل الحل في نطاق الإنتاج . [4]

وإذا ما عدنا إلى السيرة النبوية، فإن كل مواقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – تدعم هذا الاتجاه، وهذا التوجه لأمته في مجال الأخلاق، أو في مجال الاقتصاد، فهذا الصحابي يطلب الصدقة من النبي – صلى الله عليه وسلم –

---

[1] المسلم في عالم الاقتصاد، مالك بن نبي (دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 3، 1987م.)

[2] حديث: « هذا خير من أن تجيء المسالة ...» رواه أبو داوود .

[3] حديث: «لأن يأخذ أحدكم حبله ....» رواه البخاري .

[4] المسلم في عالم الاقتصاد . ص: 88.

فيعطيه، ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء، وكذلك للمرة الثالثة، ثم يأتي التوجيه النبوي « إن اليد العليا خير من اليد السفلى » [1]

وهكذا يجد ابن نبي – رحمه الله – للأزمة الاجتماعية (الفقر، التسول ....) حلا أخلاقيا، هو تقديم الواجب على الحق.[2]

فيربي الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين على المسؤولية، لأن كل تفكير يزحزح المسؤولية عن العاتق ليضعها على الغير، فينتظر منهم الخدمات والحلول لمشاكله هو تفكير يلحق منه الضرر، ولهذا الحديث التربوي يجسد هذا المعنى[3] "« إنما هي أعمالكم ترد إليكم، كما تكونوا يول عليكم » . [4]

رابعا: رسالة المسلم في العالم :

للمسلم رسالة في هذا العالم تحددها الآية الكريمة: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ.)[سورة البقرة :143]

فدور المسلم هو تبليغ الإسلام للآخرين –الرسالة – وكذلك من دور الشهادة على الآخرين أو كما يقول مالك بن نبي – رحمه الله - :" نتصور دور المسلم طبقا لضرورات داخلية وضرورات خارجية، ضرورة إنشاء وتشييد في الداخل، وضروريات اتصال وإشعاع في الخارج " [5]

---

[1] حديث: « وغن اليد العليا ....» رواه أبو داوود .

[2] المسلم في عالم الاقتصاد، ص: 88.

[3] بين الرشاد والتيه، ص: 88.

[4] حديث «إنما أعمالكم ...» رواه مسلم .

[5] دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، مالك بن نبي (دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، سوريا، ط 1، 1991م) ص: 37.

فمهمة المسلم أن ينقذ نفسه، وينقذ الآخرين، لذلك فهو رسول إلى العالم، أي صاحب رسالة يبلغها للآخرين، لقد ختم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حجة الوداع بإشهاد ذي أهمية من الناحية الأخلاقية: « ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب » [1]

إن هذه العبارة ترمز لاختتام رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم -، وكذلك ترمز إلى أن كل مسلم حاضر هناك قد تحمل مسؤولية التبليغ اتجاه الغائبين، " فالمسلم الحاضر في هذا اليوم بجبل عرفات لا يمثل شخصه، وجيله فحسب، ولكنه يمثل الأجيال التي تأتي بعده كذلك، لأن هذه العبارة من النبي – صلى الله عليه وسلم – لم تكف ولن تكف عن التصادي والرنين في أسماع الأجيال المسلمة المتعاقبة منذ الجيل الأول الذي سمعها . فقد كانت هذه الأجيال جميعها المتعاقبة في شخص السامعين في ذلك اليوم، كما أن الأجيال البشرية قد حلفت يمين آدم في شخصه قبل أن توجد في هذا العالم "[2]

فالغائبون في ذلك اليوم ليسوا فحسب المسلمين الذين خلفهم الشغل، أو المرض ...إلخ بعيدا عن مكة وعرفات، ولكن الغائبين هم كذلك الأجيال الذين لم تبلغهم الرسالة بعد، فكل مسلم كان حاضرا معنويا هناك، ويتعين عليه أن يتحمل اليوم إلى كل الذين غابوا في ذلك اليوم، إلى كل الذين لا يزالون غائبين الآن عن الرسالة .[3]

أما رسالة المسلم أو دوره الثاني فهو الشهادة، والشاهد في الأساس هو الحاضر في عالم الآخرين، لذلك فإنه لزاما على المسلم الاتصال الوثيق بأكبر عدد من الذوات البشرية، ومعرفة مشاكلها . وفوق ذلك فدور المسلم ليس سلبيا،

---

[1] حديث: « إلا ليبلغ الشاهد ...» رواه ابن ماجة.

[2] فكرة كومنويلث إسلامي، مالك بن نبي، ترجمة الطيب شريف (دار الفكر الجزائر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1990م) ص: 74.

[3] المصدر نفسه . ص: 74.

فالشاهد إذا كان حاضرا تغير سير الأحداث في حضوره، وتجنب الوقوع في المحظور .

فدور المسلم هو ملاحظة الوقائع، وتبديل مجرى الأحداث بردها إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا مجسدا لحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[1] فهذا الحديث يحدد درجات الشهادة، وأنها ثلاثة، الدرجة الأخيرة تمثل الحضور المحض للمسلم، بدون تأثير في الأحداث التي يصفها الحديث (بأضعف الإيمان)[2]

تأتي الطبيعة بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي، وقواعده وعاداته وتقاليده كما عبر عنه الرسول -صلى الله عليه وسلم-: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[3] فالمجتمع يكيف الفرد يشكله طبقا لأهدافه الخاصة فيصبغه بثقافته[4] فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان الفرد واعظا في جمعية أو صحفي أو شاعر، أو ناقد أدبي ... الخ، فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي، النقد).[5]

إن المجتمع المتحضر يقع فيه كل خطأ في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة

---

[1] حديث :{من رأى منكم منكرا .....} رواه الترمذي.

[2] فكرة كومنويلث اسلامي، ص: 72.

[3] حديث « كل مولود يولد ... » رواه البخاري ومسلم

[4] ميلاد مجتمع، ص115، 116

[5] مشكلة الثقافة، ص: 84

أسلوبه، واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن به المسلمين حين أراد التعريف بهم فقال: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ}[سورة آل عمران: 110]

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في مواضع عدة منها حديث السفينة: « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».[1]

فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ، وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا .

أما موقف الفرد الاستنكاري أو الناقد فقد عبر عنه حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم « من رأيي منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لو لم يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان -».[2] "فكل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها وذلك بأن تضع أولا بين الجسم الاجتماعي، والفرد ذلك التبادل الذي يقوم على تقويم الأخطاء منها يكن مصدرها."[3]

فدور الثقافة إذن هو خلق هذه اللحمة الاجتماعية، بحيث يصبح فيها الالتزام متبادل بين الفرد والمجتمع، كما في حديث السفينة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجتمع المتحضر هو الذي لا يسمح أن يكون فيه أي انفصال بينه وبين أفراده، فيفقد السيطرة عليهم وعلى توجيه سلوكهم وفق الهدف الذي يرسمه المجتمع لنفسه.

---

[1] حديث« مثل القائم ....» رواه البخاري ومسلم

[2] حديث « من رأى منكم منكرا .... »، رواه الترميذي في سننه

[3] مشكلة الثقافة . ص: 85.

خامسا: شروط فاعلية الفكرة:

إن الأفكار دائما هي التي تحرك التاريخ فتصعد الأمة، وترتقي بها أو تنزل وتهوي بها، وأحيانا نلاحظ أن للفكرة الواحدة مفعولا في زمان أو مكان ما ولكننا نلاحظ أحيانا أخرى أن هذه الفكرة نفسها تفقد مفعولها وفعاليتها في زمان أو مكان أخر، والسبب في نظر مالك بن نبي رحمه الله - هو أن فاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان فإذا ما غلبت هذه الشروط والظروف فقدت الفكرة مفعولها وفعاليتها فيقول: " ويمكن القول عامة أنه إذا ما عرفنا تاريخ مجتمع معين فسنجد أنه كما أن لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإن لديه مقبرة يستودعها أفكاره الميتة والأفكار التي لم يعد لها دور اجتماعي .... إن النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما، مرتبط في الواقع ببعض الشروط النفسية الاجتماعية التي بدونها تفقد الفكرة فاعليتها...."[1] ويستند ابن نبي - رحمه الله - على الواقع التاريخي، ليأخذ منه البراهين على صدق نظرته أو نظريته، فيقول إن تراث ابن خلدون قد ظهر في العالم الإسلامي. ولكن لم يكن لأفكاره من إسهامات في تقدم العالم الإسلامي العقلي والاجتماعي، لأن هذا الفكر على حد تعبير ابن نبي " هذا التراث في ذلك العصر كان يمثل فكرة لا أصل لها إطلاقا بالوسط الاجتماعي."[2]

وليست الأفكار وحدها في هذه المرحلة هي التي تفقد فعاليتها، وقدرتها على إبداع الأشياء، بل كذلك الأشياء في هذه المرحلة تفقد مقدرتها على إنتاج الأفكار، فهذه تفاحة نيوتن الشهيرة، فلو أنها سقطت على رأس جده بدلا من أن تقع على رأس هذا الرياضي الكبير لما أوحت له بفكرة الجاذبية.

---

[1] مشكلة الثقافة . ص: 46-47.

[2] المصدر نفسه . ص: 47، 46.

فالمجتمع لا يمكن له أن يستفيد من الأفكار - كما في عصر ابن خلدون "كان المسلم ينزلق على سطح الأشياء دون أن يغور داخلها ويمر بجانب الأفكار دون أن يتعمقها لأنه لم تعد لديه علاقة بهذه أو بتلك "[1]

ففاعلية الفكرة مرتبطة إذن بالواقع النفسي، والاجتماعي، قد حدد هذه الصورة حديث نبوي شريف في صورة أخاذة تخلع على الأشياء والأفكار قيمتها، وفعاليتها الاجتماعية فيقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « مثل ما بعثني الله عزوجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عزوجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ».[2]

ففي هذا الحديث بيان لعلاقة الفرد والمجتمع بالعلم - أي بالأفكار والأشخاص - فهو يرمز كما يقول ابن نبي - رحمه الله - إلى عصور ثلاثة يمر بها المجتمع بتدرج، فيبدأ تاريخ المجتمع بمرحلة يكون فيها تقبل الأفكار، وإبداعها وتمثلها كما كان في عصر الفارابي، فقد كان المجتمع آنذاك يخلق أفكارا . وتلي هذه المرحلة مرحلة أخرى تبلغ فيها الأفكار إلى مجتمعات أخرى كما كان في عصر ابن رشد حيث كان المجتمع يعيش العصر الثاني فيبلغ أفكاره إلى أوروبا.

ثم عقبت هذه المرحلة مرحلة تجمد فيها عالم الأفكار فأصبح لا فاعلية اجتماعية له، وقد تجسدت هذه المرحلة في عصر ابن خلدن، أين كان المجتمع غير قادر لا على خلق الأفكار ولا على تبليغها.[3]

---

[1] المصدر نفسه . ص: 48.

[2] حديث« مثل ما بعثني ... » رواه البخاري ومسلم.

[3] مشكلة الثقافة، ص: 90.

سادسا: فوضى العالم الغربي الحديث:

إن العالم الغربي اليوم يعيش الفوضى والنظام الذي خلق هذه الفوضى في أوروبا ذو صبغتين، فهو علمي، واستعماري، فإذا كان الأوربي في بلاده فكر بمنطق العلم وإذا ما انتقل إلى العالم فكر بعقلية الاستعمار هذا الامتزاج جعل أوربا تبلغ أقصى أحوال الضراوة.[1]

ولما أراد ابن نبي رحمه الله - أن يبين نتيجة وجزاء هذا المنطق الذي تفكر به أوربا اعتمد على حديث شريف يصف بدقة النتيجة الحتمية لمثل هذا التفكير والعمل فقال " لقد علمنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو النبي الاجتماعي درسا قال فيه: « من حفر مغواة لأخيه أوشك أن يقع فيها ».[2] وكان - صلى الله عليه وسلم- أخوف ما يخاف على أمته ما ترتكب من مظالم لا تتعرض له منها "[3]

لقد اثبت التاريخ صدق هذا القول أو الحكم فأوربا بدلا من أن تضيء بحضارتها وتهدى سير البشرية، نجدها أشاعت النيران في المستعمرات وسلبتها أرضها ولكن أوربا لم تسلم من الفوضى في الداخل فقد عمها الظلال نفسه، وعلى حد تعبير ابن نبي رحمه الله - " بل إنها قد تجرعت نفس الكأس المحتوم، كأس الاستسلام لقوى الشر الأسطوري .. لأن الأساطير الأوروبية خطيرة إلى أبعد غاية لأنها تتصرف في قوة الماكنة وقوة المادة فيوشك أن ... تهدم كل شيء بطريقة علمية فتنسف بقنابلها الذرية البلاد والعباد "[4]

سابعا: دور الفكرة الدينية في المجتمع:

إن الحضارة تتركب من عناصر ثلاث هي الإنسان والوقت والتراب أو من أفكار، وأشخاص، وأشياء، تؤلف بين هذه العناصر الفكرة الدينية التي وظيفتها إيجاد

---

[1] وجهة العالم الإسلامي . ص: 147.

[2] حديث« من حفر .... » روي في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة.

[3] وجهة العالم الإسلامي . ص: 147.

[4] المصدر نفسه، ص: 148.

شبكة العلاقات الاجتماعية، فيكون المجتمع منسجما في طبقة واحدة، كل فرد فيه مرتبط ارتباطا واقعيا بكل الآخرين من أعضاء المجتمع بواسطة علاقات شخصية [1]، فبقدر ما تقوى العلاقة الدينية في المجتمع يقل الفراغ الاجتماعي فتصبح صورة المجتمع هي ما عبر عنها رسول الله - عليه الصلاة والسلام في حديثه «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص»[2]

ثامنا: مميزات الحضارة في مرحلة الروح:

تتميز المرحلة الروحية في دورة الحضارة عن غيرها من المراحل بتوتر سلوكي واقتصادي، وبفعالية كبيرة للأفراد، فها هو المجتمع العربي قبل العهد القرآني ينحصر إنتاجه في عشرة معلقات، وهذا يعني أن طاقات القلب والعقل واليد لم يكونوا في حالة تواتر اجتماعي، ولكن بعد مجيء الإسلام استطاع أن يخلق حضارة في نصف قرن لأنه أتى بالمبررات التي تحرك وتدفع القلب، و العقل، واليد.[3].

ومن مظاهر التوتر السلوكي، المرأة التي أتت للنبي - صلى الله عليه وسلم - تطلب إقامة الحد عليها لأنها ارتكبت فاحشة الزنا، وتلح على الحد بإصرار عجيب رغم الخفاء الذي أحاط بعملها، وتظل تلح والرسول عليه الصلاة والسلام - يعيدها ويرجئها إلى مرة أخرى حتى أقيم الحد عليها فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « والذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها -» [4]

إن هذه القصة تدل على يقضة الضمير، والتوتر في القلب بعمق أصيل في أن المجتمع نفسه لم يكن يفهم هذا التوتر ويبدو فيما أبداه الأفراد من هذه المرأة إزاء صلاة النبي - صلى الله عليه وسلم - على جثمان تلك المرأة مما جعل النبي -

---

[1] ميلاد مجتمع، ص 29-30

[2] حديث « المؤمن للمؤمن .... ». رواه البخاري ومسلم

[3] تأملات، ص 35-36.

[4] حديث « لقد تابت توبة .... » . رواه مسلم

عليه الصلاة والسلام - يقول لهم –« لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم – »[1]

لقد تميزت مرحلة الروح بالإيمان الفردي، والجماعي، وخنوس الأنا وتناسق تطلعاته مع المسار العام للمجتمع، وبذلك فإن الغريزة قد سكتت، وكانت الروح هي التي تتحدث في صوت الزانية وغيرها .

أما في الجانب المادي فقد وضع المهاجرون والأنصار كل مواردهم لمواجهة المرحلة الجديدة أما الجانب النفسي والأخلاقي فقد رأينا مظاهر للعظمة لا تضاهى فهاهم الصحابة يتفانون في حفر الخندق رغم النقص في عالم الأشياء، فتظهر فعاليتهم، وعملهم المتواصل، من أجل الفكرة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- مدركا لمعاناتهم فراح يردد واعدا موزونا: « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ». [2]

هذا رجل آخر يقبل امرأة، ولكن على الفور تنطلق قوى التذكير بالعالم الثقافي الجديد فيفضي الرجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم –عما فعل فيأتي الجواب في الآية الكريمة{ وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِوَزُلَفًا مِنَ النَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السيئات} [سورة هود: 114] ويسأل الرجل: يا رسول الله إليّ هذا ؟ فيجيب - « . إنها لجميع أمتي ».[3] وهكذا تتميز المرحلة الروحية بتوتر أخلاقي وبفضل الأفكار القرآنية التي قلبت الوسط رأسا على عقب، اقتصادي وثقافي هذه الأفكار القرآنية التي تضع بصماتها المقدسة في جميع أفكار المجتمع، وجميع مواقفه وجميع أمكنته، لقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -« وجعلت لي الأرض مسجدا طهورا ».[4]

---

[1] تأملات، ص37

[2] حديث « اللهم لا عيش .... » . رواه البخاري ومسلم.

[3] حديث« إنها لجميع أمتي». رواه البخاري

[4] حديث «جعلت لي الأرض.... » رواه أحمد بن حنبل

لم يعد هناك شيئا دنيويا بل القداسة أصبحت في كل شيء وأضفت القداسة مسحتها على العالم كله، فكان الذنب ثقيلا مهما صغر، فأصبح عند كل فرد في المجتمع حساسية جمالية وأخلاقية تتصدى لكل نشاز في السلوك، والأسلوب لأن العالم الثقافي قد شكل الأفراد على ذلك التماسك في الأفكار، والسمو الاجتماعي هكذا تكون المرحلة حينما يكون للفكرة الدينية دورها في الغلاف الثقافي للأمة.[1]

تاسعا: مميزات الحضارة في مرحلة العقل:

مرحلة العقل هي المرحلة الثانية في الدورة الحضارية، وتتميز بظهور الحسابات والمصلحة الشخصية، وبروز الأنانية وتمزق جوانب من خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية الضخمة.

وتبدأ في الحضارة الإسلامية من معركة صفين، حيث حدث أول انفصال تبعته انفصالات كثيرة منها انفصال السياسي عن الاجتماعي، انفصال الإيماني عن السلوكي وانفصال المعرفي عن الثقافي، وقد ألمح الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذه المرحلة بقوله: «تكون الخلافة ثلاثون عاما ثم تكون ملكا عضوضا»[2]

عاشرا: أهمية توجيه الذوق الجمالي:

إن دور الأشياء الجميلة هو الإيحاء والخيال الجميل لأن الأفكار تتولد من الوسط الاجتماعي، فالجمال الموجود في الوسط من أصوات، وألوان، وحركات وأشكال توحي للإنسان بالأفكار، وتدعوه للإحسان في العمل، فضلا عن ذلك الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، ذلك أن الحضارة لا تتكون إلا في إطار الجمال.[3]

---

[1] مشكلة الأفكار. ص 71، 72، 73، 74.

[2] يزيد رمرام، نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي، جريدة الشروق الثقافي (تصدر عن الشروق العربي، العدد 15، الأسبوع من 04 إلى 11 نوفمبر 1993 م)

[3] شروط النهضة . ص: 78 أما حديث « تكون الخلافة ثلاثون عاما فقد رواه احمد بن حنبل.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الجمال فإنه علينا أن نتمثله في بيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، وبذلك يثيرنا أي نشاز في الأصوات أو الألوان ... قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- « إن الله جميل يحب الجمال »[1]

وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فإن للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتدخل فيها اعتبارات الشكلية . من خلال الأحاديث النبوية نلمس مرعاة النبي - صلى الله عليه وسلم - لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلا حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه نجده يقول: "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ....."[2] ونلمسه كذلك في قوله للذي أحدث ما ينقض الوضوء في مجلسه: "من أكل لحم جزور فليتوظأ"[3]

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان يدرك ما للجمال من أثر في النفسيات وماله من دور في ربط الصلات.[4]

حادي عشر : أشكال بناء المجتمع:

يختلف الطابع التشكيلي من مجتمع إلى آخر، فهناك مجتمعات يقوم بناءها على طوابق كثيرة، كالمجتمع البرهمي، والمجتمع الأوربي في القرن التاسع عشر، وهناك مجتمعات أخرى ذات الطابق الواحد، أو الحجر الواحد، وإليه ينتمي المجتمع الإسلامي الذي اتخذ بناؤه صورة تتفق مع حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ».[5]

---

[1] شروط النهضة . ص: 139 أما حديث « إن الله جميل .... » رواه أحمد بن حنبل

[2] حديث « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... » رواه البيهقي

[3] حديث " من أكل لحم الجزور.... » رواه أحمد ابن حنبل

[4] حديث في البناء الجديد، مالك بن نبي « منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت »، ص: 73-74

[5] حديث « المؤمن للمؤمن » رواه البخاري ومسلم 13-12

إن هذا الحديث يعطي الصورة التي كان عليها المجتمع الإسلامي في عصر النبي صلى الله عليه وسلم -، فلا طبقية، ولا تمييز.....[1]

ثاني عشر: المرض الاجتماعي:

يتكون المجتمع فجر بزوغ الحضارة مجتمعا أخذ صورة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »، فلا فراغ اجتماعي ولا طبقية بل شبكة العلاقات الاجتماعية تؤدي دورها في تركيب عالم الأشخاص، والأفكار والأشياء.

ولكن قد ينتهي المجتمع وهو متخم بهذه العناصر الثلاثة (الأفكار، والأشخاص والأشياء (إذا ما تمزقت شبكة علاقاته الاجتماعية، وما عاد أفراده يشد بعضهم بعضا، فاصبحوا عاجزين عن النشاط المشترك فيما بينهم، هذه الصورة التي عبر عنها الحديث النبوي الشريف « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل ما الوهن يا رسول الله ؟ قال حب الدنيا، وكراهية الموت »[2]

فهذا الحديث يصف حالة المجتمع حين يتحول إلى مجرد تجمعات سكانية أو أنه يصف العالم المستعمر والقابل للاستعمار، وهذا حين تتمزق شبكة علاقات المجتمع، فيصبح مريضا، ماض إلى نهايته .[3]

ثالث عشر: أساس الإصلاح والتربية الاجتماعية:

كانت الفكرة الإسلامية هي المحرك لبناء مجتمع دخل الحضارة بفضل هذه الفكرة، بذلك فقد أثبتت صلاحيتها في بناء مجتمع أدى نشاطه المشترك ببالغ

---

[1] ميلاد مجتمع، ص 12، 13.

[2] حديث «يوشك أن تدعى ..... » رواه أحمد، وأبو داوود

[3] ميلاد مجتمع، ص42

التوفيق، لقد جعلت هذه الفكرة من البدوي إنسانا متحضرا، فأخضعت طاقتهم الحيوية، وكيفتها وفق مقتضيات المجتمع ومتطلباته.[1]

فإذا ما أراد المسلم اليوم إعادة نهضة مجتمعة، وبعثه حضاريا فإن قوانين تربية وإصلاح المجتمع يجب أن تستقي من علم التاريخ، وعلم الاجتماع وعلم النفس، لأن هذه القوانين لا يغيرها الزمن، فنهضة مجتمع ما تتم في الظروف نفسها التي تم فيها ميلاده، وكذلك بناؤه وإعادة هذا البناء يخضع للقانون نفسه الذي خضع له ميلاده.[2]

هذا القانون هو ما عبر عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم بقوله: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » [3]

وكذلك الأزمات فإنا نقدّر خطرها على المجتمع بالنظر إلى ميلاده، فاليوم يعيش المسلم انفصالا بين الفكر والسلوك ولو أن المسلمين في القرون الأولى للإسلام اكتفوا بصلاة في المسجد، من المؤكد أنهم ما كانوا ليغيروا الوسط الجاهلي بل ربما كان الوسط هو الذي يؤثر فيهم، فيذوبوا فيه، ولكن أنقذهم النشاط المشترك واليوم المشكلة نفسها تواجه المسلم، وما عليه إلا أن يتخلص من هذا الانفصال بين الفكر والسلوك، أو بين عالم أفكاره وسلوكه، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد نبه لطريقة الخروج من الأزمات حين قال: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».[4]

---

[1] ميلاد مجتمع، ص107، 108.

[2] المصدر نفسه، ص: 76

[3] حديث « لا يصلح ..... » قول للإمام مالك بن انس – رضي الله عنه –

[4] ميلاد مجتمع . ص: 114

رابع عشر: أهمية توجيه العمل:

إن الحديث عن توجيه العمل في العالم الإسلامي المتخلف هو حديث عن توجيه شيء منعدم تقريبا لأن أغلب ساعاتنا تتحول إلى عدم لخلائها من الإنتاج، بل جل وقت العالم الإسلامي هو ساعات فراغ.[1]

فالحديث عن توجيه العمل هو حديث عن تربية الأفراد عن العمل، والبذل والفعالية، وقد تعلم المسلمون هذه الفعالية حين كانوا يشيدون أول مسجد، إن توجيه العمل يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يخطه المجتمع لنفسه، فيساهم كل أفراد المجتمع في البناء، المهندس والراعي والمرأة والفلاح ... الخ.[2]

إنه على قدر ما تكون في المجتمع صناعات، وحرف، وفنون، تتجه أحوال معيشة الأفراد إلى التحسن، لذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحث على المبادرة إلى الأعمال قبل فوات الأوان، ويحث على عدم تأجيل الإنجازات حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- « من كانت بيده غرسة يريد غرسها، وقامت الساعة فليغرسها » [3]. فهذه الوصية لمن يتولى الغرس من المسلمين يجب أن نتأملها ويستفيد منها كل مسلم، حتى في ظرف غير يسير أو أن الساعة قد حلت ".[4]

إن هذا الحديث يدع إلى المبادرة، وأن يكون الإنسان فعالا يؤدي نشاطه على أكمل وجه، فتعليم الناس عمل، وإزالة الأذى عن الطريق عمل، وغرس شجرة عمل، استغلال أوقات الفراغ عمل الخ وهكذا لا يكون في الأمة كسول، ولا اتكالي يعيش عبئا على من يتولاه سواء فردا أو مجتمعا وربما هذا ما عبرت عنه الآية الكريمة حين قررت جود إنسانيين، أحدهما كل سلبي والآخر فعال إيجابي نشيط،

---

[1] شروط النهضة، ص161، 212

[2] المصدر نفسه، ص: 163.

[3] « حديث من كانت بيده غرسة » رواه أحمد بن حنبل

[4] بين الرشاد والتيه . ص: 128.

إذا ما توجه إلى عمل أداه على أحسن وجه، وكان بإمكانه استعمال وسائله الأولية، واستخراج ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج فلنعم المال الصالح للرجل الصالح، قال تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَبكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُل على مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوجِهُهُ لا يَأْتِي. بخير هل يستوي ومن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مستقيم" [سرة النحل: 76][1]

وقد ضرب لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثالا للرجل الفعال، المعتمد على نفسه في شخص نبي الله داود عليه السلام - حين قال: « ما أكل احد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده »[2]

خامس عشر: دور المستشرقين في الفكر العربي:

تباينت اتجاهات المستشرقين في كتاباتهم عن الإسلام والمسلمين، بين مادحين للحضارة الإسلامية، وبين منتقدين مشوهين لسمعتها. وإذا ما أردنا أن نعرف الجانب الإيجابي من هذين النوعين من الدراسات الاستشراقية فإننا لا نجدها في صورة المديح، بل في صورة التفنيد. [3]

ذلك أن التفنيد يدعونا إلى إعادة النظر في الطرق التي نبرز بها ما عندنا، فمثلا عندما يعلن الاستشراق أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم، فإن هذا التفنيد لدور العرب يجعلنا أو يضطرنا إلى طرح مشكلة الإسلام، والعلم في صورة جديدة تتماشى مع سمو الدين، ومنطق العلم، فلا نذهب للآيات الكريمة لنبحث فيها عن ذكر غزو الفضاء، وتحليل الذرة ... الخ وإنما نتساءل هل في روحها ما يعطل حركة العلم، وتطوره، أم أنها على العكس من ذلك إذ تشجعه وتحثه

[1] الإنسان حين يكون كلا، وحين يكن عدلا، جودت سعيد (المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1990) ص6، 7، 9.

[2] حديث « ما أكل أحدا طعاما » رواه البخاري

[3] القضايا الكبرى، ص 167، 182

عليه ؟ إن علينا أن نتساءل هل يخلق القرآن الجو والمناخ المناسب للروح العلمية، وهل يخلق فيه الأجهزة النفسية لتقبل العلم وتبليغه ؟[1]

إذا ما نظرنا في تاريخ تطور العلم، فإن العلم النووي لم يشمخ إلا بفضل طرق الحساب التي هيئها النظام العشري الذي هو من ابتكار العرب.

و إذا ما نظرنا في تطور علم الحساب، فإن الجبر هو الذي قام بهذا الدور حين حوّل الأرقام المحسوسة إلى علم الرموز المجردة، ولا يخفى أن اسم الجبر عربي من ناحية الصيغة والاشتقاق، كذلك إذا ما نظرنا إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي اكتشفها ابن النفيس .....

إن القرآن الكريم لم يأت لا بالنظام العشري، ولا بعلم الجبر وغيرهما، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور، لأن التطور العلمي أو العلم هو مجموعة المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتساب هذه المعلومات، ولكنه يضاف إلى هذا أيضا مجموعة الظروف النفسية والاجتماعية التي تؤثر سلبا وإيجابا في تطور العلم أو تعطيله .[2]

فها هو غاليلي حين أعلن عن نظرية دوران الأرض، لم تدنه أكاديمية علمية، بل أدانته محكمة دينية، لقد لقي معارضة عقائدية حكمت عليه بالإعدام، من هذه الحادثة نستنتج أن عوامل القمع والحرمان موجودة في نفسية هذا المجتمع، فهي عائق في طريق تطور العلم، ولو كان هذا العالم يعيش في المجتمع الإسلامي ما كان تعرض للعوائق نفسها التي حدث من عمله العلمي، وحطمت حياته، فهذا ابن الراوندي ينتقص من قدر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكننا لا نجده حوكم أو أدين وهو قد تجرأ على أكبر شخصية في الإسلام .[3]

---

[1] المصدر نفسه . ص: 182

[2] القضايا الكبرى . ص: 138-185

[3] المصدر نفسه، ص 186.

إن هذه الحوادث إن دلت على شيء فإنما تدل على أن المجتمع الإسلامي عندما كان هو القدوة والنموذج في العالم، لم يكن يعرف الإكراه وسيلة لقمع الفكر والحرية، وإذا كنا نجد العهد القديم في سفر التكوين ينفتح على عالم الظاهرات المادية، وينفتح كتاب العهد الجديد في إنجيل يوحنة على عملية التجسيد فإن القرآن الكريم ينفتح على الجانب العقلي وعلى العلم قال الله تعالى: "اقرأ بِاسْمِ رَبِكَ الذي خَلَق " [سورة العلق: 1]. إضافة إلى ذلك فإنه توجد آيات كثيرة تضع الفكر الإسلامي في طريق العلم وتزوده لاكتسابه، بأحسن التوجيهات. كما نجده في قوله تعالى{ وَمِنهُم أُمّيونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَاني وَإِنْ هُمُ إِلا يَظُنُونَ } [سورة البقرة: 78]إذ تعبر على أن الميل والشك ومجرد الاحتمال لا تعبر عن الاقتناع العقلي في أصفى صوره، وغيرها من الآيات الموجهة للعقل في بحثه عن الحقيقة .[1]

إذا ما نظرنا في السنة فإنها تدعم عمليا البناءات التي أنشأها القرآن الكريم في الفكر الإسلامي حتى ينطلق محصنا مزودا، فيقوم بمهمته السياسية والعلمية والاجتماعية على أكمل وجه، فهذا رسول الله صلى الله علية وسلم - يقول: "طلب العلم فريضة على كل مسلم "[2]

ويقول أيضا: « اطلبوا العلم ولو بالصين»[3]

يقول كذلك: « حبر العلماء أفضل من دم الشهداء»[4]

فهذه الأحاديث تدخل مباشرة في حياة المسلم اليومية وفي توجيه نشاطه.[5]

---

[1] المصدر نفسه، ص 186، 187، 190.

[2] حديث « العلم فريضة على كل مسلم .....» رواه ابن ماجة.

[3] حديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » رواه ابن الجوزي.

[4] حديث « حبر العلماء أفضل ... » رواه ابن الجوزي.

[5] القضايا الكبرى، ص 190-191.

سادس عشر: المرض الإجتماعي.

إذا كانت العلوم الطبيعية قد بلغت درجة تحديد مصطلحاتها، فصارت مفاهيمها واضحة في ذهن القارئ سواء في البلاد الغربية أو العربية، فإن العلوم الإنسانية لم تبلغ درجة تحديد مصطلحاتها ورفع الغموض عنها بعد، فإلى اليوم هناك الكثير من المصطلحات أو المفاهيم في علم الاجتماع تبدو أحيانا غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث أن اللغات المحلية لم تتمثل تماما المصطلحات الحديثة . لذلك فإن المناقشات التي تدور حول هذه المصطلحات والمفاهيم تأخذ غالبا الطابع الأدبي، أكثر مما تأخذ الطابع العلمي، كالمناقشات التي في أغلب الأحيان حول مصطلح حضارة، ومدينة .....فهذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع بل تجعله أكثر صعوبة [1]، لذلك فيكون من الأهمية إيراد مفهوم المجتمع عند مالك ابن نبي، لنعرف بعد ذلك الفرق بينه وبين كثير من الظواهر التي يطلق عليها لفظة مجتمع .

تعريف المجتمع:

المجتمع في اللغة موضوع الاجتماع، ويطلق في الاصطلاح على الجماعة من الأفراد يجمعهم أمر واحد ... ويطلق لفظ المجتمع بمعنى أخص على المجموع من الأفراد تؤلف بينهم روابط واحدة تثبتها الأوضاع والمؤسسات الاجتماعية، ويكفلها القانون أو الرأي العام . بحيث لا يستطيع الفرد أن يخالفها، أو ينحرف عنها، إلا إذا كان عرض نفسه للعقاب أو للسخط ... ويطلق لفظ المجتمع على الاجتماع في الأسرة، أو القرية، والقبيلة، والمدينة أو المعمورة تقول: المجتمع القروي، أو

[1] ميلاد مجتمع.ص:9.

المجتمع القبلي، أو المجتمع المدني، أو الصناعي أو الزراعي، كما أن المجتمع البدائي مرادف للمجتمع المتخلف [1] .

وهكذا نرى المعجم يطلق مصطلح "مجتمع" على كل تجمع للأفراد دون اعتبار لأي شيء آخر، فهل يذهب الأستاذ ابن نبي - رحمه الله- في تعريف المجتمع مذهب المعجم، فيطلق لفظ "مجتمع " على كل تجمع للأفراد أم أن له نظرية أخرى في تعريف المجتمع وتحديد الظاهرة التي يطلق عليها لفظ " مجتمع " إطلاقا صحيحا ؟؟

يقول الأستاذ ابن نبي – رحمه الله – "نذكر في مستهل دراستنا تنوع الظواهر الاجتماعية التي تنطبق عليها لفظة مجتمع " [2] فيفرق بداية بين المجتمع الطبيعي أو البدائي، وبين المجتمع التاريخي .

فالمجتمع الطبيعي في نظره هو الذي لم يعدل بطريقة محسة المعالم التي تجدد شخصيته منذ كان، فهو يحقق نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل، أو النحل، والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في عصر الجاهلية .

أما المجتمع التاريخي فهو الذي ولد في ظروف أولية معينة، ولكنه عدل من بعد صفاته الجذرية ابتداء من هذه الحالة الأولية، طبقا لقانون تطوره، فهو يحقق النموذج المتحرك، أي المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير الذي يعدل معالمه من جذورها .[3]وينشأ المجتمع التاريخي بطريقتين: فهو إما يتركب ابتداء من مواد جديدة لم تتعرض لأي تغيير تاريخي سابق، وبهذه الطريقة نشأت المجتمعات التاريخية الأولى، إبان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد .وقد يتكون المجتمع

[1] المعجم الفلسفي جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، لبنان، بيروت، د ط، 1982، ج2، ص: 345-346.

[2] ميلاد مجتمع، ص:9.

[3] ميلاد مجتمع، ص: 9-10 .

التاريخي من عناصر استخدمت في مجتمع تاريخي سابق تحولت عناصره المكونة له، بسبب تقادمه، أو انبساط رقعته إلى عناصر مهيأة للاستخدام في مجتمع جديد، فتكون الاستعارة في صورة هجرة، كتلك التي كونت المجتمع الأمريكي، أو تكون الاستعارة في حالة أخرى كإعادة تركيب أنقاض مجتمع اختفى، كالمجتمع الروماني الذي امتص في بنائه كثيرا من المجتمعات التي اختفت مثل المجتمع الغالي بعد معركة أليزيا .[1]

ويولد المجتمع التاريخي بطريقتين، فهو إما يولد إجابة عن اختيار مفروض تفرضه الطبيعة الخاصة بالوسط الذي يولد فيه . سواء تعرض هذا الوسط لتنوع مفاجئ أم أن العناصر المكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد، وهذا هو المجتمع التاريخي الجغرافي . وينتمي المجتمع الأمريكي إلى هذا النوع من المجتمع، لأنه ثمرة هجرة أوروبية اضطرت إلى أن تتكيف مع الظروف الطبيعية في القارة الجديدة .

أما الطريقة الثانية التي يولد بها المجتمع التاريخي فهي طريقة النموذج الفكري أو الأيديولوجي، ففي هذا النوع يولد المجتمع تلبيه لنداء فكره، كالمجتمع الإسلامي، والأوربي لأنه ثمرة الفكرة المسيحية وكذلك المجتمع الصيني، والسوفياتي .[2]

ونجد في هذه المجتمعات نوعا يقوم بناءه على طوابق كثيرة، كالمجتمع البرهمي فهو نموذج المجتمع المنقسم إلى طوائف متراكمة، وكذلك المجتمع الأوربي في القرن التاسع عشر فهو مثال للتراكب الاجتماعي . ونوع آخر للمجتمع هو ذو الحجر الواحد، أو الطابق الواحد الذي بناؤه اتخذ صورة تتفق في كثي أو قليل مع حديث

[1] المصدر نفسه، ص: 10.

[2] المصدر نفسه، ص: 11.

رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص بعضه بعضا " [1]

" فالمجتمع إذن أيا كان نموذجه التاريخي أو التشكيلي ليس مجرد جمع لعناصر أو أشخاص تدعوهم غريزتهم إلى أن يتكتلوا في إطار اجتماعي معين ...فالغريزة وسيلة لإنشاء المجتمع وليست سببا في إنشائه، إذ يضم المجتمع ما هو أكثر من الأفراد الذين يؤلفون صورته، يضم عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامة وبتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن أفراده ... هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع واستقراره عبر الزمن، ويتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا، وهو الذي يتجسد في نهاية الأمر بشبكة العلاقات الاجتماعية ".[2]

وهكذا يرى الأستاذ ابن نبي – رحمه الله – يرى أن التعريف الذي يقدمه القاموس من أن المجتمع يعني: تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين واحدة، وهم فيما بينهم مصالح مشتركة، إن هذا التعريف أدبي أو تحديد وضعي خارجي لا يعطي أدنى تفسير للوظيفة التاريخية التي تناط بتجمع الأفراد ولا يفسر هذا التعريف تنظيم المجتمع وتشكيله الداخلي، أما الأستاذ ابن نبي – رحمه الله – فيحدد تعريف المجتمع في نطاق الزمن فيقول: " فتجمعات الأفراد الذين لا يعدّل الزمن من علاقاتهم الداخلية ولا تتغير أشكال نشاطهم خلال المدة . لا تعد من المجتمعات الخاصة التي نقصدها بمصطلح مجتمع أما المجتمعات التي لا تتغير صورة حياتها، كمالا تتغير مستعمرات النمل خلال آلاف السنين، هذه الجماعات خارجة عن نطاق التجديد " [3] إذن فلكي نطلق على جماعة ما مصطلح المجتمع أو صفة المجتمع يشترط أن لا تكون ساكنة، لأن الجماعة الساكنة تعيش

[1] المصدر نفسه، ص: 12-13.

[2] ميلاد مجتمع، ص: 13-14.

[3] المصدر نفسه، ص: 15-16 .

حياة اجتماعية دون غاية أو هدف، مرحلة ما قبل الحضارة [1] لأنها جماعة لا تتغير ولا تطور عبر الزمن .

وقد اختلف العلماء في تفسير أسباب حركة المجتمع، فهيقل مثلا يردها إلى أسباب اقتصادية أي إلى مبدأ التعارض الذي يتكون من قضية ونقضيها، أو بتأثير الأفعال وردود الأفعال، فالفكرة الماركسية ترى أن الأسباب المتعارضة التي تؤدي إلى حدوث التغييرات ذات طابع اقتصادي . وتوينبي يردها إلى التحدي، فالتغير الاجتماعي في نظره يتم بين حدين لا يتم خارج نطاقها . وذلك شبيه بحالة التفريط في نقص التحدي، بالإفراط تنشأ عنه زيادة على قدر معين، ومن أسباب التغيير أيضا، العوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في المجتمع، فالقرآن الكريم يضع الضمير المسلم بين حدين، الوعد، والوعيد وهما أنسب الظروف التي يمكن من خلالهما للمجتمع أن يجيب على تحدي روحي في أساسه .[2]

سابع عشر: شبكة العلاقات الاجتماعية:

إذا كانت صفة المجتمع لا تطلق على الجماعة التي لا تتغير ولا تتطور، لأن هذه الجماعة ليست سوى جمع لعناصر وأشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى التكتل، فلا هدف لهم، ولا رسالة، فإن الجماعة التي تستحق صفة المجتمع هي الجماعة التي تتطور وتتغير عبر الزمن، فالمجتمع في هذه الحالة ليس مجرد مجموعة من الأفراد يؤلفون جماعة، بل هو مجتمع له ثوابت تحافظ على دوامه، وتوجه ألوان نشاطه، ورسالته وأهدافه، هذا العنصر الثابت هو ما يسميه مالك – رحمه الله – بشبكة العلاقات الاجتماعية فيقول: " وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، واستقراره عبر الزمن، ويتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا، وهو الذي يتجسد في نهاية

[1] المصدر نفسه، ص: 20.

[2] المصدر نفسه، ص: 22.

الأمر بشبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم وتوجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة هي رسالة المجتمع الخاصة به، فتكوّن هذه الشبكة هو الذي يعبر عن حدث ميلاد مجتمع .[1]

إن أي عمل تاريخي يصنع بتأثير عوالم ثلاثة، عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء، فهي تتوافق لأداء عمل مشترك، فكل عمل هو من إنتاج عالم الأفكاريتم تنفيذه بوسائل من عالم الأشياء من أجل تحقيق غاية يحددها عالم الأشخاص، ولا يمكن بأي حال أن يتم عملا تاريخيا مالم تتوافر صلات ضرورية بين هذه الطوائف الاجتماعية الثلاثة، فينتج عن توافق هذه الوحدات الثلاثة مع الغاية منها ما يسمى بالحضارة، والرابط بين هذه العوالم الثلاثة هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية وهي شبكة العلاقات الاجتماعية .[2]

ولما كانت هذه وظيفة شبكة العلاقات الاجتماعية، فإن أول عمل يؤديه المجتمع لتغيير نفسه مشروط باكتمال هذه الشبكة، التي هي أول عمل يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، ولهذا كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإن اجتماع الأشخاص في أي ظرف وفي أي مكان هو التعبير المرئي عن قيام شبكة العلاقات الاجتماعية، وصور الاجتماع مختلفة قد تكون في هيئة تظاهرة، أو مدرسة، أو جيش، أو مصنع ....الخ، فكل هذه الصور تعبر عن شبكة العلاقات في صور مختلفة .[3]

وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين، حدث تمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تسمح له بصنع تاريخه، فالمجتمع لا ينتج القيمة الخلقية التي تنظم حياته، وتتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك، ولكن القيمة الخلقية هي من نتاج الفكرة الدينية، فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي

---

[1] ميلاد مجتمع، ص: 14.

[2] المصدر نفسه، ص: 27-28 .

[3] ميلاد مجتمع، ص :48-51-52-54- (بتصرف).

التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط مابين الإنسان وأخيه الإنسان، تلدها في صورة القيمة الخلقية ويقرر الأستاذ ابن نبي – رحمه الله – فيقول: "وبذلك نستطيع أن نقرر عامة أن كل ما يكون صله من أي نوع في نطاق العوالم الثلاثة (الأفكار، الأشخاص، الأشياء) هو في الحقيقة علاقة شروط بوجود ثقافة وبالتالي جميع أشكال الاتصال الفكري كالنص أو اللغة علاقات اجتماعية " [1]

فالتاريخ يبدأ في الواقع قبل أن تتكون هذه العوالم، كما انه قد ينتهي والمجتمع غني بما فيه من أشخاص، وأفكاروأشياء، كما قد حدث أيضا للمجتمع الإسلامي إبان أفوله، أي عندما نجم في تطوره مركب القابلية للاستعمار، لقد كان المجتمع الإسلامي آنذاك غنيا، ولكن شبكة علاقاته الاجتماعية تمزقت [2]

وهكذا تظهر أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية فبتكونها يبدأ التاريخ وتبزغ الحضارة وبتمزقها ينتهي المجتمع ويخرج عن دائرة الحضارة والتاريخ، ويصبح تجمعات لا هدف لها ولا غاية .

ثامن عشر: المرض الاجتماعي :

إذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تقوم بتأليف النشاط الناتج عن اجتماع عالم الأشخاص وعالم الأفكاروالأشياء، حيث لا يمكن تصور عملا متجانسا من هذه العوالم الثلاثة دون هذه العلاقات التي تقوم بها الشبكة، فكلما كانت العلاقات الاجتماعية وثيقة كان العمل فعالا ومثمرا، وبحسب حال الشبكة يكون المجتمع، فيرى مالك بن نبي –رحمه الله- أنه: " إذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته ..."[3]

[1] المصدر نفسه، ص:33.

[2] المصدر نفسه، ص: 28.

[3] ميلاد مجتمع، ص: 42.

ولما كان الأمر كذلك، وكانت لشبكة العلاقات الاجتماعية كل هذه الأهمية فإن أي (ارتخاء للتوتر في خيوط الشبكة) [1] يؤدي إلى عجزها عن القيام بتأليف النشاط الذي ينتج عن اجتماع العوامل الثلاثة (الأشخاص، الأفكار، الأشياء) سيؤدي بالضرورة إلى مرض المجتمع، وارتفاع الصحة عنه، واتجاهه إلى السقوط والنهاية ولا عجب في أن تطلق صفة المرض على المجتمع تشبيها له بالإنسان، فإن القاموس يجعل من بين إطلاقات كلمة المرض أنها تطلق على الأرض فنجد فيه " المرض:السقم، نقيض الصحة، ورأي مريض: فيه انحراف عن الصواب، وأرض مريضة: إذا كثر فيها الهرج والفتن والقتل " [2] كما نجد في القاموس أن كل ما ضعف فقد مرض . إذا فكل مجتمع ارتخت فيه خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية سائر إلى الضعف، وضعف المجتمع وانحطاطه دليل على مرضه وعجزه، أما إذا تفككت شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا فذلك أمارة على نهاية المجتمع وهلاكه فلا تبقى سوى منه ذكرى مدفونة في كتب التاريخ على حد تعبير مالك بن نبي – رحمه الله - [3] بعد ذلك فقد ينتهي المجتمع وينحط ويمحى من التاريخ في حين أنه متخم بالأشخاص والأفكار، والأشياء . والتاريخ غني للتدليل على صحة هذا القول، فهذا المجتمع الإسلامي في الشرق في نهاية العصر العباسي، وفي المغرب في نهاية عصر الموحدين .[4]

فالمجتمع إذن في حال ارتخاء خيوط شبكة علاقاته يعيش حالة من التحلل والانحطاط، والتمزق، والعجز عن أداء النشاطات المشتركة، ويمكننا بالنظر فيه أن نلخص الكثير من الأمراض التي تنتشر فيه سواء كانت نفسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية ...الخ فالمرض يعم كل المجالات لا مجالا دون آخر والعجز

[1] المصدر نفسه، ص:42.

[2] لسان العرب المحيط، لابن منظور (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1993م) ج 5، ص:462.

[3] ميلاد مجتمع، ص: 42.

[4] ميلاد مجتمع، ص: 42.

يصبح ظاهرا للمجتمع، والنبي – عليه الصلاة والسلام – وهو النبي الاجتماعي يصور هذه الحالة بحديث هو من جوامع الكلم، ويظهر فيه فهم النبي – عليه الصلاة والسلام – العميق لأسباب نهوض وسقوط المجتمعات فيقول: {يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: لا، بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن، قال: حب الدنيا وكراهية الموت }

فهذا الحديث النبوي الشريف يصور حالة الضعف والتمزق التي يصل إليها المجتمع، فتجتمع عليه خطط الأمم ومؤامراتهم فيمزقونه ويشتتونه، كما هو حال القصعة التي يجتمع عليها كثير من الأفراد لأكلها فهل يبقى منها شيئا ؟ ويبين الحديث أن هذا التداعي من الأمم، والتآمر، والتكالب، لا يكون لأن الأمة المتآمر عليها قليلة الأفراد والعدد، بل هي كثيرة، ولا مكانة لها، ولا رأي لها، لأنها غثاء كغثاء السيل، فتصبح الأمة مهانة، يجتمع عليها الأعداء بلا خوف، ولا رهبة منها، وربما هذه إشارة إلى واقع الأمة المريضة من سقم آخر هو سكن الوهن قلبها، وربما هذا إشارة إلى مرض نفسي هو عقد النقص، والقابلية للاستعمار، وفقدان القدرة على النضال من أجل النهوض والتحرر، ذلك لأنها تحب الدنيا والبقاء وتكره وتهرب من الموت .

ويذهب مالك بن نبي – رحمه الله – إلى أن هذه الظواهر المرضية، أو عواقب تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية ليست خاصة بمجتمع دون غيره، بل هي سنن عامة، فعندما اختفت الإمبراطورية الآشورية القوية في القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن هذا الحدث التاريخي يعزى إلى صدفة الحرب ولكنه يعزى إلى تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية، وقد أصبح عاجزا عن أداء أي نشاط مشترك في إمبراطورية

آشور القوية .[1] فحالة المرض إذن تكون حينما يحدث ارتخاء في خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية، فيظهر المرض على شكل إنفصالات في هذه الشبكة فتستمر هذه الحالة طويلا قبل أن يتحلل المجتمع ويتفكك كليا ويتحول إلى مجرد ذكرى .

ويرى الأستاذ ابن نبي – رحمه الله -: " أن جميع أسباب التحلل كامنة في شبكة العلاقات فقد يبدو المجتمع ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته مريضة ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الإفراد "[2]

وربما هذا ما عبر عنه الحديث بقوله: " بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ...." كثيرون في أعدادهم وأشيائهم وأفكارهم ولكن ما يؤلف كل هذا قد تحلل وتمزق، ففسدت معه العلاقات بين الأفراد، فتظهر بهذا كثيرا من الأمراض في المجتمع، نفسية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية .. ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر، مرض تضخم الأنا، وتورم الذات، وعقد النقص والقابلية للاستعمار، واحتقار الذات، واستيراد الحلول الاجتماعية والاقتصادية من الخارج ... الخ، وهكذا يعم المجتمع المرض أفراده وعلاقات هؤلاء الأفراد فيما بينهم، وفي سياستهم الداخلية والخارجية، وفي تعاملهم مع الآلة والاقتصاد ...الخ .

"فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء، والسقوط الاجتماعي الذي يصيب عالم الأشخاص يمتد لا محالة إلى الأفكار والأشياء "[3]

وصور السقوط كثيرة من فقر، وافتقار، عدم إعطاء الأشياء والأفكار قيمها الحقيقية، ويمتد هذا الافتقار إلى تكاليف الحياة الاجتماعية فترتفع الأسعار ويقل

---

[1] ميلاد مجتمع . ص: 43.

[2] المصدر نفسه . ص: 43.

[3] المصدر نفسه، ص: 45.

الإنتاج، "فإذا كان الإنتاج قد تغير فما ذلك إلا لأسباب اجتماعية ...أي الاضطراب في شبكة العلاقات " [1]

ولا يكتفي السقوط بأن يصيب عالم الأشخاص وحده، أو عالم الأشياء فقط، فذلك يمتد إلى عالم الأفكار، فلا تعرف الأمة قيمة كثير من الأفكار القيمة التي تنتج في هذه المرحلة، ولا حتى قيمة المفكرين، " فهذا تراث ابن خلدون ظل حروفا ميتة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع عشر (ق 19)"[2]

وبالانحطاط والمرض الذي يصيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة تنتشر قيم أخلاقية تعكس درجة هذا الانحطاط والتدني فتظهر الرشوة، وخداع المشتري، وغبنه ...الخ.

من مظاهر وعلامات مرض المجتمع، فساد العلاقات بين الأفراد، ونلم وجوده إذا أصيبت الذوات بالتضخم، فيؤدي هذا المرض إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية، بعدما كان في المجتمع السليم منسجم مع تطلع المجتمع وتوجهه، فينتج عن هذا التضخم للأنا استحالة وصعوبة العمل المشترك فيبدوا النقاش حينئذ "لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين" [3] إن المجتمع السليم تطرح فيه المشكلات لإيجاد العلاج والحلول، أما في المجتمع المريض فإن طرح المشكلات يصبح فرصة لانتفاش الذات وتورمها، فلا تحل المشاكل لأن شبكة العلاقات لم تعد أمورها على طبيعتها، إضافة إلى ذلك فطبيعة المواضيع التي تطرح للنقاش تعكس الحالة المرضية للمجتمع، إذ في هذه المرحلة لا تناقش القضايا والمسائل الواقعية، بل الاهتمام يوجه إلى مشكلات وقضايا خيالية، وقد

[1] المصدر نفسه، ص: 47.

[2] المصدر نفسه . ص: 47.

[3] ميلاد مجتمع .ص:43.

تجسدت كل هذه الملاحظات في عصر الانحطاط، أين كان العلماء يبحثون في جنس الملائكة، والتوضؤ من وطء البهيمة ...[1]

في العهد الأول للإسلام، كان أفراد المجتمع منسجمين مع توجه المجتمع وأهدافه، لذلك فقد كانت أناهم سليمة، وكانت علاقاتهم فيما بينهم سليمة كذلك، فها هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعزل رجلا مثل خالد بن الوليد. ولا يؤدي بهذا الأخير لا إلى إعلان معارضة، ولا إلى شق عصا الطاعة ... والسبب في ذلك هو أن فعل الخليفة، ورد فعل القائد دون عقد، لأن أناهما سليمتان، وكانت علاقتهما نزيهة فيما بينهما. [2]

وهكذا فإذا ما ظهر المرض النفسي على صفحة الأنا، غدا العمل المشترك أو الجماعي صعبا أو مستحيلا، ذلك أن دراسة الأمراض الاقتصادية، والسياسية، والأخلاقية، ..... الخ. هو في الواقع دراسة لأمراض الأنا. وإذا ما أغفلنا هذا الجانب فإن حكمنا سيكون على ظواهر الأشياء، لا على جوهرها. [3]

ذلك أن المشكلة دائما في الإنسان دون غيره من باقي العناصر (عالم الأفكار، والأشياء) باعتباره المتحكم والمنتج لها، فإذا ما حلت أزمة الإنسان فإنه بالضرورة ستحل المشاكل الاقتصادية، السياسية، والاجتماعية ... الخ، لأن كل سقوط في عالم الأشخاص يؤدي لا محالة إلى سقوط في عالمي الأفكار والأشياء، وكل علاقة فاسدة في عالم الأشخاص لها بالضرورة نتائجها في عالمي الأفكار والأشياء .

إنه من السهل أن نتصور الخلل والمرض في عالم الأشخاص، الذي يؤدي إلى تمزق شبكة العلاقات، وبالتالي تنتج صعوبات وآثار ذلك في مستوى السياسة، والاقتصاد، والثقافة ... الخ، فإذا ما كانت في عشيرة ما فئة تدعوا إلى الشر –

[1] المصدر نفسه .ص:43-44.

[2] المصدر نفسه، ص:44.

[3] المصدر نفسه، ص:44.

مخربون_، وإذا كان جانب من الأمة يبني والآخر يخرب، فهذا يعني أن هناك خللا في عالم الأشخاص، وليس السارق، وشارب الخمر، والمرتشي، والذي يستغل إخوانه لمصالحه ... إلا آثارا للمرض في عالم الأشخاص. [1]

وبما أن كل تمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية له أثاره لا في عالم الأشخاص فحسب بل في عالم الأفكار، والأشياء أيضا. فالأفكار إذا لا تنتشر، ولا تر النور ولا يستفاد منها إلا إذا وجدت في مجتمع شبكة علاقات متماسكة. فهاهي الدورة الدموية ترى النور في العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنها ظلت غائبة عن عالم الأفكار. وهذه البوصلة تتيح لكريستوف كولومبس اكتشاف أمريكا مع أنها لم تتح للعرب أن يقوموا بمثل هذا الاكتشاف على الرغم من أنهم هم الذين اخترعوها. [2]

إضافة إلى ذلك فمن علامات المرض الاجتماعي على مستوى الأفكار، هو وجود الأفكار المميتة، والقاتلة مستولية على الأمة، فيعوقها عن التقدم، سواء كانت هذه الأفكار المميتة من إنتاجها، أو أنها أفكار مستوردة. "وإذا كان وعي عصر ما بعد الموحدين يذهب ليلتقط من العواصم الغربية تلك النفايات فينبغي للمجتمع ألا يلوم أحدا غيره" [3] فاستيراد الأفكار الميتة من الخارج إذن يؤدي إلى التعفن، فهذه الأفكار تفسد ولا تصلح.

أما مظاهر المرض على مستوى الأشياء فإنه يظهر على شكل افتقار، وهبوط في مستوى الإنتاج، حتى ولو كانت خصائص الأرض لم تتبدل "فإذا كان الإنتاج قد تغير فما ذلك إلا لأسباب اجتماعية" [4].

---

[1] التأملات، ص:18.

[2] ميلاد مجتمع، ص:45.تأملات، ص:19.

[3] مشكلة الأفكار، ص:150،

[4] ميلاد مجتمع، ص:47.

ومن علامات المرض الاجتماعي كذلك القيم الأخلاقية التي تكشف عن الانحطاط، من رشوة وخداع للمشتري، والسرقة والغش، ..ففي العصر العباسي للدولة الإسلامية ظهرت حرفة محاكاة السلع وتقليدها لهدف واحد هو خداع المشتري والتغرير به، فكان لديهم سكر بديل، لحم بديل، ووضعت كتب لترشيد الهواة لأسرار هذه التراكيب الكيمياوية. [1]

وهكذا فمظاهر المرض تظهر على عالم الأشخاص كما تظهر على عالم الأفكار، والأشياء، وفي مجتمعنا الأمراض مردها للإنسان بأنواع مختلفة. فمن أفرادنا من يتصل بعالم الأشياء، ومنهم من يتصل بعالم الأفكار، وكلهم يتصلون فيما بينهم على مستوى عالم الأشخاص.

فإذا ما تحدثنا عن الأفراد الذين لهم صلة بعالم الأفكار فهم المثقفون، وإذا ما تحدثنا عن الأفراد الذين لهم صلة بعالم الأشياء فهم العمال، ورجال المصانع الخ. فالمشكلة إذن في عالم الأشخاص دون غيرهم من العوالم الأخرى .

والحل هو إصلاح الثقافة ليكون سلوك الأفراد مع الآخرين سلوك حضاري وتعود العلاقة بين عالم الأشخاص كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص"[2]. وكذلك بإصلاح الثقافة لأنها هي التي تكون عالم الأفكار وتحدد علاقتنا به وللثقافة علاقة أيضا بالسياسة التي تكون عالم الأشياء وتحدد علاقتنا به (الثقافة تحدد أسلوب الحياة)[3]

تاسع عشر : مشكلة الثقافة

الناظر في فكر مالك بن نبي- رحمه الله- سيلاحظ عناية بالغة أولاها هذا المفكر لمشكلة الثقافة، فلا نكاد نجد كتابا من كتبه يخلو من الحديث المعمق أو الإشارة لمعنى الثقافة، ومفرداتها ووظيفتها وقيمتها في المجتمع وعلاقتها بالنهضة والحضارة.

---

[1] المصدر نفسه، ص:47.

[2] حديث :المؤمن للمؤمن .....رواه البخاري ومسلم .

[3] تأملات، ص:20-21.

كيف لا ومالك بن نبي يرى أن مشكلة الحضارة في الأساس هي مشكلة الثقافة. والعارف لمفردات المنظومة الثقافية وقيمة كل مفردة ووظيفتها لن يستغرب هذا الطرح بل سيؤيده ويرى صحته، وسيقول ما قال مالك بن نبي بأن أي إخفاق أو تأخر حضاري يسجله مجتمع من المجتمعات يعود بالأساس إلى الإخفاق الثقافي، لذلك فقبل أن يحل المجتمع مشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية يجب أن يتجه إلى حل مشكلاته الثقافية، و هذا ما جعل مالك بن نبي- رحمه الله- يولي الثقافة كل هذا الاهتمام، ويضعها في مكانها الاستراتيجي في مشروعه الهام" مشكلات الحضارة" .

إن محور تفكير مالك بن نبي هو مشكلة الحضارة، وإن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة، لأنها أصل كل تحول حضاري في التاريخ، كما أنه عزا إليها معظم الفاجعات والنكبات التي يصاب بها المجتمع في الميدان الصناعي أو الأخلاقي أو السياسي أو العسكري."فالفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي"[1] .

فالمسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعّال يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الرقي الحضاري المنشود من جهة أخرى"[2] .

"

_الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1، ، دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، 1993، ص[1]12.

_المرجع نفسه، ص[2]13.

بـيّن مالـك بـن نبي وظيفـة الثقافـة في حيـاة الشـعوب، وركـز على الثقافـة الإسلامية وكان يستمد أدلته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويعود إلى التاريخ فيدعم آراءه من وقائع المجتمع الإسلامي، وكذا المجتمع العالمي.

بـين أن الفـرد يـأتي إلى الحيـاة في صـورة بدائيـة، ثـم يتـولى المجتمـع تشـكيله بطابعه الأخلاقي وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه"[1]، فالمجتمع يكيف الفرد يشكله طبقا لأهدافه الخاصة، فيصبغه بثقافته، فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان هذا الفرد واعظا في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد أدبي..الخ، فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي- النقد)

بين أن المجتمع المتحضر يقع فيه كل خطأ في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه، واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن به المسلمين حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة آل عمران110)

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في حديث السفينة:" مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على

_"حديث كل مولود.." رواه البخاري ومسلم[1].

أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[1]، فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا.

1_ مفهوم الثقافة

اهتم مالك بن نبي كثيرا بمسألة تحديد المصطلح، إذ نجده من خلال كتاباته له منهجا خاصا في التعامل مع المصطلحات، حيث يعرفها لغويا، وتاريخيا واصطلاحا، و في اللغات العالمية، وهذا ما فعله مع مصطلح الثقافة، الحضارة ..

يرى مالك بن نبي أن معالجة موضوع الثقافة يجعلنا أمام مشكلة لغوية تاريخية، فيتساءل من أين جاءت كلمة ثقافة ؟ ومنذ متى استخدمت؟[2]

الثقافة في اللغة: رأى مالك بن نبي أن أول خطوة في تعريف الثقافة هي استشارة القواميس، وهي بعد اطلاعه لا تذكر الكلمة إلا لماما، سواء في ذلك القديمة أو الحديثة، ففي لسان العرب وجد

أن مصطلح الثقافة مأخوذ من ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، وثقف الشيء حذقته، والثقيف هو الحاذق الفطن.[3]

ويقول ابن دريد: ثقفت الشيء حذقته، وفي حديث الهجرة :" هو غلام شاب لقن ثقف".[4]

أي ذو فطنة وذكاء، والمراد هو ثابت المعرفة بما يحتاج إليه[5] . ثم يعود مالك بن نبي إلى دوائر المعارف لتعريف مصطلح الثقافة، فيقول أن العلامة فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثاني، :" ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق،

_"مثل القائم في .." رواه البخاري ومسلم[1].

_ مالك نبي، مشكلة الثقافة، ط1، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، ، 1984، ص19[2].

_ ابن منظور، لسان العرب، دط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ، 1988، ج1، ص13[3].

_ حديث:"هو غلام.." رواه البخاري[4].

_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص19[5].

وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفا، غلبه في الحذق، والتثقيف: الحاذق الفطن"و يطلع مالك بن نبي على القواميس الحديثة في تعريفها للثقافة، فيرى تشابه النصوص مما يجعله يستنتج أنها نسخا مكررة نقل بعضها عن بعض.

ثم يعود لابن خلدون فلا يجده يستعمل الكلمة كظاهرة اجتماعية، وان وردت في مقدمته مرة أو مرتين فبمعناها الأدبي[1] .

يتتبع مالك بن نبي المصطلح تاريخيا، فيصل إلى أنه إذا ما عدنا إلى لغة العصر الأموي والعباسي لا نكاد نجد هذه الكلمة في استعمال المسلمين لا في اللغة الأدبية أو الرسمية الإدارية رغم أن الثقافة العربية كانت آنئذ في أوج ازدهارها[2] ..

و نتيجة لهذا فالكلمة لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين لأنها مستعارة أو جاءت من أوروبا.[3]

لم نجد مصطلح ثقافة في كتابات ابن خلدون لأن فكرة " ثقافة" حديثة جاءتنا من أوروبا، ثم إننا نجد فيما كُتب حديثا في البلاد العربية أن الكتّاب يقرنون دائما "ثقافة" بكلمةculture

، مكتوبة بحروف لاتينية، كأنما يبتغون بهذا أن كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، ومعنى ذلك أن هؤلاء الكتاب يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد.فهي جديدة. [4] ..وجدت بطريقة التوليد

ويمكن أن نقول أن الفعل ثقف يتصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام، حتى لنراه قد ورد في آية قرآنية :"﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (سورة البقرة 191)

---

[1]_المرجع نفسه، ص19.

[2]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص20.

[3]_ المرجع نفسه، ص13.

[4]_المرجع نفسه ص24-25.

ولكن يبدو أن كلمة (ثقافة) لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين، وهذا ما يفسر لنا أنها بحاجة دائما إلى كلمة أجنبية تقرن بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع، أو بعبارة أخرى لا تزال الكلمة في العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة[1]. culture

_ المعنى الاصطلاحي للثقافة

يعرف مالك بن نبي الثقافة فيقول:" هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم -الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يعيش فيه".[2]

فهذا التعريف يضم فلسفة الفرد، حيث تطبع سلوكه، كما تضم فلسفة الجماعة فتنظم أسلوب حياتهم، فسلوك الإنسان وأسلوب حياته وعلاقته بالآخرين هو في الحقيقة نتاج المجتمع الذي ينشأ فيه الإنسان، فهو يستشفها من المحيط الذي يتربى فيه، كما يتنسم الأكسجين.

لذلك فردة الفعل، وتصرفات أبناء المجتمع الواحد تكون متشابهة حتى وإن اختلفت مستوياتهم المادية والعلمية، والطبيب والراعي لهما نفس ردة الفعل والانطباع اتجاه الأحداث والمشاهد والمشاكل التي يواجهونها.

الإنسان حينما يولد في مجتمع معين بالضرورة سيمتص ويصطبغ بما في مجتمعه من روائح وألوان وأصوات وحركات وظلال وأشكال وصور..كل هذه العناصر تتجمع لتندمج وتذوب في أنفسنا فتطبع شخصيتنا بها، وتكون أساسا لتصرفات وسلوكات أبناء ذلك المجتمع في أخلاقهم وتفكيرهم ..الخ ذلك أن الثقافة هي :" المحيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا" .[3]

_ المرجع نفسه، ص[1]25.

_المرجع نفسه، ص[2]74.

_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ض[3]78.

فالثقافة تمثل بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد هو(البلازما)، ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته ويحمل أفكار(الصفوة) كما يحمل أفكار(العامة)، وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة[1].

فالثقافة إذن هي المحيط الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية، فتتشكل في هذا المحيط طباعه، وشخصيته وذوقه وتحكم علاقته بالسنن التي في النفس وفي الآفاق، فالثقافة نظرية في المعرفة ومنهج في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء[2].

يرى مالك بن نبي أن الثقافة في صورتها الحية هي وحدة ذات أجزاء متماسكة، ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه.و الروابط هذه هي التي تضع على الثقافة طابعها الخاص، فتضع طابعا خاصا لأسلوب الحياة في المجتمع ولسلوك الأفراد فيه، بمعنى أنها تحدد كل الميزات الإنسانية والتاريخية الخاصة بتلك الثقافة[3].

الفرد منذ ولادته غارق في عالم من الأفكاروالأشياء التي يعيش معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية، تكوّن في الحقيقة إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة ملغزة [4].

من خلال كل هذه التعريفات التي قدمها مالك بن نبي للثقافة يتبين لنا أن:

---

[1] _ المصدر نفسه، ض78.

[2] _ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص14.

[3] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط3، دار الفكر، دمشق، 1969 ص153.

[4] _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص55.

_ الكلمة متولدة من لغة أجنبية، وأنها تُكتسب منذ الولادة من الوسط الذي يولد فيه الإنسان، فهي محيط نفسي وفكري واجتماعي ينشأ فيه أبناء المجتمع الواحد، فهي عنصر الجمع بين أفراد المجتمع، وهي بمثابة اللحمة، هذه الثقافة تكسبنا أسلوب الحياة، وكطريقة التعامل مع الآخرين.

_ الثقافة هي الوسط الذي يعيش فيه المتعلم وغير المتعلم، فهي تمدهم بأسلوب مشترك في التصرف والتعامل وأسلوب الحياة، فتكون مواقفهم من ا أحداث متشابه، فهي عنصر توحيد لأبناء المجتمع الواحد، في الأذواق والأخلاق والتاريخ.

_الثقافة عنصر أمان المجتمع، يضمن خصوصيته بين باقي الشعوب.

من خلال تعريف مالك نبي يتبين لنا أن الثقافة عبارة عن صفات أخلاقية يتصف بها الإنسان وقيم يعيش بها في المجتمع . وهذا التعريف يضم فلسفة الفرد، حيث تطبع سلوكه، كما تضم فلسفة الجماعة فتنظم أسلوب حياتهم، فسلوك الإنسان وأسلوب حياته وعلاقته بالآخرين هو في الحقيقة نتاج المجتمع الذي ينشأ فيه، فهو يستنشقها من المحيط الذي يتربى فيه كما يتنسم الأكسجين، لذلك فردة الفعل، وتصرفات أبناء المجتمع الواحد تكون مشابهة حتى وإن اختلفت مستوياتهم المادية، والعلمية، لأن البيئة التي تربوا فيها واحدة، لذلك تجد أبناء المجتمع الواحد ردة فعلهم اتجاه الحوادث والمشكلات وانطباعاتهم واحدة .

فالإنسان حين يولد في مجتمع معين بالضرورة سيمتص ويصطبغ بما في مجتمعه من ألوان وروائح وأصوات وحركات وظلال وأشكال وصور..كل هذه العناصر تتجمع لتندمج وتذوب في أنفسنا فتنطبع شخصيتنا بها، وتكون أساسا لتصرفات وسلوكات أبناء ذلك المجتمع في أخلاقهم وتفكيرهم، ذلك أن الثقافة هي المحيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا. [1].

---

[1] _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص78.

فالثقافة هي المحيط الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية، فتتشكل في هذا المحيط طباعه وشخصيته وذوقه، و

تحكم علاقته بالسنن التي في الأنفس والآفاق، فالثقافة نظرية في المعرفة ومنهج في السلوك ومنهجية في العمل والبناء[1].

2_ مفردات المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي

لما كان للثقافة الموقع الاستراتيجي في حركة التجديد والبناء لأنها تشكل طباع الإنسان وأخلاقه وأذواقه، ومنهج سلوكه ومنهجية عمله.فقد وضع لها الأستاذ ابن نبي رحمه الله محاورا إذا ما استوفت أتت أكلها في بناء الإنسان وإعداده، وبذلك يكون المجتمع قادرا على النهوض والتطلع إلى الحضارة، والمحاور التي حددها ابن نبي للثقافة هي:

1_ التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية

2_ التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام

3_ المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام

4_ الصناعة، أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع[2].

أ_ المبدأ الأخلاقي:

المبدأ الأخلاقي، أو منظومة العالم السلوكي كما يسمها الأستاذ الطيب برغوث، والمقصود بها الارتقاء بالسلوك الإنساني الفردي والجماعي إلى قمم"الإحسان"، حيث تتناغم خطى الإنسان: الفرد والجماعة والأمة مع سنن الآفاق وسنن الأنفس وسنن الهداية[3].

_ الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع، الجزائر، 1993، ص[1]14.

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص[2]132.

_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص[3]23.

غريزة التجمع أو الحياة الجماعية ثابتة عند الإنسان، و المجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويوظفها بروح خلقي سام، حتى لا يكون كالحيوان، وحتى يتجنب المجتمع الفوضى واللانظام، ولما كان لهذا العنصر من أهمية فقد كان منحة من السماء إلى الأرض، يأتي مع الرسالات عند ميلاد الحضارات، ومهمته كما يقول ابن نبي :" هي ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال 63)، فالروح الدينية هي التي تجمع بين العناصر المتفرقة كما جمع الإسلام بين الأنصار والمهاجرين، إلى درجة أن يقول الواحد منهم لأخيه اختر أي النساء من زوجاته[1].

والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة، وقد جاء رسولنا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، فيعلوا بها ويسموا إلى درجة يتميز فيها الإنسان عن غيره من المخلوقات التي تأتي ردات فعلها وفقا لغريزتها، والله تعالى يثني على نبيه صلى الله عليه وسلم بفضيلة الأخلاق رغم وجود فضائل لا تحصى خص بها الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم4)، إن ابن نبي يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد فيقول:" إن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة"[2].

إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة وهو الإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودوافعه وغاياته.

ب_ الذوق الجمالي:

---

[1] _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص79.

[2] _ مالك بن نبي، شروط المهضة، ص124.

الذوق: في اللغة: للتذوق معاني كثيرة وأصله ذاق من "الذوق" والتذوق شيء آخر غير الحاسة التي في الجهاز الحسي في الفم ومركزها اللسان والتي يميز بها الإنسان خواص الطعم والأشياء، ومن معانيها ذاق عند فلان، أي خبره، وأتذوقه، ذاقه شيئا بعد شيء، وأمر مستذاق أي مجرب معلوم، و الذوق والتذوق في الأدب هو اسم وصفة لحاسة معنوية تصدر عن انبساط النفس. [1].

وهو مصدر من ذقت الشيء أو ذوقه، فهو مذاقا، والذوق في الأصل تعرف الطعم، ثم كثر حتى جعل عبارة عن كل تجربة.

إن لفظة الذوق عند العلماء لا تقتصر على ما يذاق باللسان، بل تتعدى إلى معنى أجمع وأوسع، وهو تذوق الجمال في اللفظة والجملة والمعاني، فالكلام يذاق كما يذاق الطعام، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن في الذوق.

الذوق عبارة عن آداب السلوك التي تقتضي معرفة ما هو لائق أو مناسب في موقف اجتماعي معين، فالإنسان إذا كان ذا معرفة بالتصرف المناسب لكل موقف، ولم يخرج عن الأدب والعرف، ونقول: فلان لديه ذوق، أي ملتزم بأدب السلوك.

2_ الجمال: في اللغة الحسن في الخَلق والخلق، وجمُل ككرم، فهو جميل كأمير، أي أن الجمال هو كل شيء مبهج يتجلى في الطبع والسجية والحياء والأخلاق، وكلها صفات يحملها الإنسان، و كما أنه يكون في كل ما هو مرتب ومنسجم ومتناسق يبعث الإثارة في النفس، والجمال في اللغة يتسم بالرقة والحسن والبهاء، وينبئ عن الخلق الحسن والفعل الحسن. وقال ابن فارس: عظم الخلق وحسنه، إن الجمال معانيه تدور حول الحسن والنظرة والزينة . [2].

_ إيمان حسن محمد سحته، الذوق الجمالي عند المفسر وأثره في إبراز جمال النص القرآني.ص[1]7.

_ إيمان حسن محمد سحته، الذوق الجمالي عند المفسر وأثره في إبراز جمال النص القرآني.ص[2]7.

مفهوم الجمال عند الشعراء والمفكرين إدراك حسي، فالحواس هي التي تدرك الجمال، وهناك جمال معنوي، الذي يدرك بالبصيرة، والجمال عالم مستقل بذاته، له قوانينه الخاصة به، وهي قوانين تدركها المشاعر وحدها، فلا يقاس جمال الأشياء بقدر ما فيها من تعقيد أو من تسلسل منظم، بل إن أقسام الجمال تهب حينما تشاء[1].

وعرف أيضا بأنه الاستجابة الوجدانية لمؤثرات الجمال الخارجية، وهو اهتزاز الشعور في المواقف التي تكون فيها العلاقات الجمالية على مستوى رفيع فيتحرك لها وجدان الإنسان بالمتعة والارتياح.

إن دور الأشياء الجميلة هو الإيحاء والخيال الجميل لأن الأفكار تتولد من الوسط الاجتماعي، فالجمال الموجود في الوسط من أصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان بالأفكار، وتدعوه إلى الإحسان في العمل فضلا عن ذلك الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، ذلك أن الحضارة لا تتكون إلا في إطار الجمال،

فإذا كانت هذه هي حقيقة الجمال فانه علينا أن نتمثله في بيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، وبذلك يثيرنا أي نشاز في الأصوات أو الألوان.[2]

الذوق الجمالي إجرائيا هو كل ما يعجب الإنسان ويستحسنه ويستصيغه، وتأنس إليه الروح وترتاح له، ويحرك شعورها النفسي ويصل إلى الروح وتتقبله النفس وتطمئن إليه، كالمناظر الطبيعية أو الأحاديث، أو الحركات، أو التصرفات أو المناظر في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان أو في الشارع أو البيت ..الخ

يظهر الاهتمام بالذوق الجمالي جليا في ثقافتنا الإسلامية، سواء من خلال تتبعنا لما جاء في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، فقد ارتبطت العبادات

_ محمد عبد الغني لقمان كزرابي، الذوق الجمالي في الأدب النسوي المعاصر، رواية كوابيس بيروت لغادة السمان أنموذجا، جامعة أبو بكر بن القائد، كلية الأداب، 2017_1018، ص[1]18.

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص[2]139.

بالطهارة من خلال وجوب الغسل والوضوء، والطهارة ترمز للجمال والنظافة في البدن والرائحة الطيبة التي تتحقق بفضلهما، وارتبطت العبادات بنظافة وطهارة المكان والتحرز من كل نجس، وارتبطت الصلاة بالمساجد التي يلبس المسلم لها أجمل الثياب، وارتبط جمال المسلم بجمال روحه وتطهيرها من كل أمراض القلوب، كما ارتبط المسلم في علاقاته بإخوانه بجميل الأخلاق، ويحرص المسلم على البيئة النظيفة والاعتناء بالطبيعة، وفي الإسلام نهي عن الخيلاء في المشي ونهي عن رفع الأصوات وغيرها من مظاهر اهتمام الإسلام بوجود الذوق الجمالي في كل مجالات حياتنا، وهذا البحث يسعى لإظهار هذا الاهتمام بجميل المظهر والسلوك والتفكير في الإنسان المسلم

الذوق عبارة عن آداب السلوك التي تقتضي معرفة ما هو لائق أو مناسب في موقف اجتماعي معين، فالإنسان إذا كان ذا معرفة بالتصرف المناسب لكل موقف، ولم يخرج عن الأدب والعرف يكون صاحب ذوق.

الجمال في اللغة الحسن في الخَلق والخُلق، وجمُل ككرم، فهو جميل كأمير، أي أن الجمال هو كل شيء مبهج يتجلى في الطبع والسجية والحياء والأخلاق، وكلها صفات يحملها الإنسان، وكما أنه يكون في كل ما هو مرتب ومنسجم ومتناسق يبعث الإثارة في النفس، والجمال في اللغة يتسم بالرقة والحسن والبهاء، وينبئ عن الخلق الحسن والفعل الحسن[1]. وقال ابن فارس: عظم الخلق وحسنه، والجمال معانيه تدور حول الحسن والنظرة والزينة[2] .

_عبد الله بن محمد العمرو، معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية والغربية، مجلة العلوم الشرعية، العدد38، ص[1]7.

_المرجع نفسه، ص[2]7.

وعُرّف أيضا بأنه الاستجابة الوجدانية لمؤثرات الجمال الخارجية، وهو اهتزاز الشعور في المواقف التي تكون فيها العلاقات الجمالية على مستوى رفيع فيتحرك لها وجدان الإنسان بالمتعة والارتياح [1] .

فالجمال هو كل ما يعجب الإنسان ويستحسنه ويستصيغه، وتأنس إليه الروح وترتاح له، ويحرك شعورها النفسي ويصل إلى الروح وتتقبله النفس وتطمئن إليه، كالمناظر الطبيعية أو الأحاديث، أو الحركات، أو التصرفات أو المناظر في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان أو في الشارع أو البيت ..الخ

إن الأفكار في فكر مالك بن نبي هي المحور الأساسي في بناء الحضارة، ولذلك كان للأفكار الحية البناءة ألا تنتج إلا في وسط منظم فيه من من مسحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه، وكما يقول ابن نبي :" لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال أو بالأفكار الكبيرة، فان لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح" [2].

فالأفكار تنسج عليها الأعمال، والأفكار تولد من الصور المشاهدة في محيط الإنسان، وإطاره الاجتماعي، والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن، لذلك يقرر مالك بن نبي أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيه حضارة [3].

ونظرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ستكشف لنا عن اهتمامهما بالذوق الجمالي والنظام وطهارة النفس والجسم والثياب والمحيط وإماطة الأذى

---

[1] _محمد البسيوني، التربية والذوق الجمالي، دط، دار المعارف العلمية، القاهرة، 1986، ص49.

[2] _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 81.

[3] _ المرجع نفسه، 85.

عن الطريق والكلام الطيب..هي نماذج هذا النزوع الإسلامي لتربية الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية.

إن دور الأشياء الجميلة هو الإيحاء والخيال الجميل، لأن الأفكار تتولد من الوسط الاجتماعي، فالجمال الموجود في الوسط من أصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان بالأفكار، وتدعوه للاحسان في العمل، فضلا عن ذلك الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، ذلك أن الحضارة لا تتكون إلا في إطار الجمال[1].

فإذا كانت هذه هي حقيقة الجمال فانه علينا أن نتمثله في بيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، وبذلك يثيرنا أي نشاز في الأصوات أو الألوان..قال صلى الله عليه وسلم:"ا ن الله جميل يحب الجمال"[2].

وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلا حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه بقوله:" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.." [3]. ونلمسه كذلك في قوله للذي أحدث ما ينقض الوضوء في مجلسه :" من أكل لحم جزور فليتوضأ"[4].

يظهر اهتمام الإسلام بالذوق الجمالي من خلال حثه على:

_ طهارة البدن وجمال القلب والمعاملة: الذوق الجمالي جلي في ثقافتنا الإسلامية، سواء من خلال تتبعنا لما جاء في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، حرص الإسلام على وجود الذوق الجمالي في كل حياتنا فنتحرك ونعيش

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص[1]78.

_ حديث:" ان الله جميل.." روا أحمد[2].

_ حديث:" مابال أقوام.." روا البيهقي[3].

_ حديث:" من أكل لحم جزور.." روا أحمد[4].

في جو من الجمال داخل بيوتنا وفي الطبيعة وأسلوب حديثنا وأصواتنا وأبداننا وروائحنا، فيعيش المسلم في جو كله نظام وترتيب وذوق .

ترتبط أغلب العبادات في الإسلام بالطهارة، فلا تصح الصلاة مثلا بلا غسل أو وضوء، والطهارة ترمز إلى الجمال والنظافة في البدن والرائحة الطيبة التي تتحقق بفضلهما، وبما أن الصلاة خمس مرات في اليوم موزعة على أوقات عديدة فان المسلم يكون دائما على طهارة ونظافة، ولا يخفى على أحد أن طهارة البدن لها انعكاس حسن على نفسية الفرد حيث يشعر بالارتياح والحيوية والنشاط.

الوضوء ليس مجرد تنظيف للأعضاء الظاهرة فحسب وليس مجرد تطهير للجسد يتوالى عدة مرات في اليوم، بل إنه يؤثر نفسيا في السمو الروحي الذي يشعر به المسلم بعد الوضوء[1]..

كما ارتبطت الصلاة كذلك بنظافة وطهارة المكان، و التحرز من كل نجس لذا يحرس المسلم على نظافة بيته من كل الأوساخ، فيعيش في بيت نظيف ومرتب، ولا شك أن نظافة المكان تبعث في الروح الإحساس بالجمال والنقاء وارتياح النفسية . وقد شدد الإسلام في مسألة التحرز من النجاسات، وإلا تكون العقوبة العذاب في القبر.

وارتبطت الصلاة بالمساجد بالتطيب ولبس أجمل الثياب وسن لها البياض على وجه الخصوص، مع تجنب كل أنواع الأكل التي ترتبط بالروائح غير الطيبة كالبصل والثوم، فمن احترام الفرد للمجتمع أن لا يأكل هذه المأكولات وهو متوجه للقاء الجماعة، وقد حرس النبي صلى الله عليه وسلم على السواك لأنه مطهرة للفم، وقال :" لولَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتهمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ".[2]

_ محمد بن ابراهيم محمد، عناية الاسلام بالصحة والنظافة، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1436هـ، [1]47.

_ حديث " لولا أن أشق... " أخرجه البخاري ومسلم[2]-.

_ جمال القلب (الجانب الروحي):

يرتبط جمال المسلم بجمال روحه وتطهيرها من كل أمراض القلوب، لتكون نفسه شفافة ناصعة بعيدة عن الحقد والحسد والغل، كما ارتبط المسلم في علاقاته بإخوانه بجميل الأخلاق، حيث يلقاهم بوجه طلق والابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، حتى في النصح لا يجرح مشاعرهم فينبه بأسلوب ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا .

المسلم جميل في نيته، فالنية الحسنة لها الأجر والثواب، و يحرص الإسلام على أن يعيش المسلم بقلب نقي سليم وأن لا يبيت الإنسان الحقد في قلبه اتجاه إخوانه من المسلمين، وأن لا يتمنى الشر للناس ولا يحسدهم ويتمنى زوال نعم الله عليهم، ولا يحمل لهم البغض والكره.ذلك أن أمراض القلوب خطيرة على الإنسان، وتعكر صفو حياته ومزاجه وصحته، لذلك لم يُرد الإسلام للمسلم أن يفكر في الانتقام ورد السيئة بالسيئة، بل حثه على العفو قال تعالى :" وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"(آل عمران 3)، ويقول أيضا: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت 35)

_ جمال الأخلاق والتعامل مع الناس:

وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان الذوق الجمالي له دور فيها لذا تتداخل فيها الاعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلا حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه نجده يقول:" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا"[1]، ونلمسه كذلك في قوله للصحابة:"من أكل لحم جزور فليتوضأ"[2]

_ حديث " ما بال أقوام... " رواه البهقي[1].

_ حديث " من أكل لحم... " رواه أحمد[2].

حيث أمر الجميع بالوضوء لكي لا يحرج الذي أحدث، فحتى تعاملاتنا مع الناس يجب أن لا يكون فيها إحراج وأذى.و ينبه النبي صلى الله عليه وسلم بستر الصدقة حيث لا تعلم اليد اليمين ما أنفقت اليد الشمال، ليرفع الحرج عن الفقراء ويحافظ على مشاعرهم وكرامتهم.

حتى في النصيحة لم يكن رسول الله صلى الله عليه ويسلم يجرح مشاعر الناس، كان ينبه بأسلوب، ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، كل ذلك لرفع الحرج عن المسلم وكذا الابتعاد عن التشهير بالناس لأنه ليس من الإسلام، الذي يدعو إلى الستر، وكان صلى الله عليه وسلم حريص على حفظ ماء الوجه لأصحابه وعدم إحراجهم .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يدرك ما للجمال من أثر في النفسيات حين نراعيه، وماله من دور في ربط الصلات حين نلتزمه في تعاملاتنا[1].

يأمرنا الإسلام باللين في التعامل، فما كان اللين في شيء إلا زانه وما نقص من شيء إلا شانه، حتى الدعوة إلى الله نراعي فيها الحكمة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن التعنيف والتجريح، وقد بين القرآن الكريم سبب محبة الناس للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران159)

وقد مدح القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم 4)، لذا الإنسان المسلم يطلب منه جميل الخلق، وهو باب واسع للدعوة إلى الإسلام، وبينت تعاليم الإسلام كثيرا من التصرفات إذا التزم المسلم بها تعم المحبة في المجتمع، كإفشاء السلام، والابتسامة. السلام يزرع المحبة وكذلك لقاء الإخوان بالابتسامة، ليس من الذوق أن نلقى الأقارب والجيران والأصدقاء

[1] _ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص12-.

والإخوان بوجع عبوس ومكشر، الابتسامة لها رونق وجمال، وتعابير تضفي على وجه صاحبها الراحة والسرور، و القبول من طرف الآخرين، وقد رتب عليها النبي صلى الله عليه وسلم أجراً عظيماً، فقال صلى الله عليه وسلم: "وتبسمك في وجه أخيك صدقة"[1]، ومعنى الحديث، أنّ إِظْهَارُك الْبَشَاشَةَ إِذَا لَقِيت أخاك المسلم، تُؤْجَرُ عَلَيْهِ كَمَا تُؤْجَرُ عَلَى الصَّدَقَة.

حث الإسلام على ضرورة رد الإحسان بالإحسان قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (الرحمن 60)و هذه الآية تحث على رد الجميل والاعتراف به لأنه يديم المحبة بين الناس،

يحث الإسلام على جمال العلاقات، وجميل الأخلاق حيث يلقاهم بوجه طلق وابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة في الإسلام صدقة، وهي سبب عظيم في تطييب قلوب الناس، وإدخال السرور على قلوبهم.

ونهى الإسلام عن صفات سيئة تفسد جمال العلاقات والأخوة بين الناس كالتجسس والتنابز بالألقاب والغيبة وسوء الظن والغيبة.

من جمال العلاقات بين الناس التعاون " إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[2] الإحسان والأمان، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يوصي بالجار، وشدد في المسألة حين قال :" والله لا يؤمن .. من لا يأمن جاره بوائقه"[3]، وليس معنى هذا أن المسلم معصوم عن الخطأ، بل المسلم يسارع إلى طلب الصفح وتصحيح خطئه إذا أخطأ، فهذا أحد الصحابة ينادي بلال رضي الله عنه بابن السوداء" فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:" انك امرؤ فيك جاهلية "[4]، وسرعان ما يشعر بخطئه ويسارع لطلب العفو.

_ حديث " ابتسامة ... " أخرجه الترمذي[1].

_ حديث " *ان الله في عون* ... "رواه مسلم[2].

_ حديث " .. *من لا يأمن جاره بوائقه* ... "رواه الشيخان[3].

_ حديث "انك امرؤ فيك جاهلية ... "رواه البخاري[4].

يربى الإسلام الفرد المسلم على الانشغال بالنفس ومن خلال غض البصر وصرفه عن المحرمات، وخفض الصوت، لأن الأصوات المرتفعة تثير الانزعاج في النفوس والنشاز، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾(الحجرات 2)، وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان 3)، و قد قال الشيخ العثيمين أنه يدخل في خفض الصوت أصوات المزامير والغناء الذي يؤذي الجيران، وأيضا من الذوق أن لا يتسكع الناس في الشوارع بل يقصدون في مشيتهم ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ (لقمان 3) وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس في الطرقات لما فيه من إيذاء المارة، و عدم غض البصر .

للحفاظ على جمال العلاقات ورفعا للحرج شرّع الإسلام الاستئذان وحث عليه داخل البيت الواحد، وخاصة في أوقات العورات حيث يضع الناس ثيابهم، حيث نجد في الإسلام آداب الدخول على بعضنا البعض في البيت، حتى لا نرى بعضنا البعض في هيئات لا نحبها، وتوسع الاستئذان لإعلام الغير بالقدوم والزيارة، حتى في دخول الرجل على أهله بعد العودة من السفر حث النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل على أهله ليلا، لتتمكن زوجته من الاستعداد لاستقباله بالاغتسال والتطيب ومشط الشعر .

_ جمال البيئة والوسط التي نعيش فيها:

خلق الله تعالى هذا الكون جميلا، واستخلف فيه الإنسان، وسخر له كل ما في الطبيعة، وركب فيه الإحساس داخليا تذوق هذا الجمال والارتياح له، فأينما نولي وجوهنا نرى جمال الكون في السماء في البحار في الحقول في الفصول، في أنفسنا، في عالم الحيوان، ووجب على الإنسان عدم إفساد هذا الجمال، وعدم العبث في الطبيعة .

لذا يحرص على البيئة النظيفة لأنها مسخرة له، وفيها يجد راحته، ليعيش فيها في جو صحي نظيف، لذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على غرس الأشجار فقال:"إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تَقوم حتى يَغرِسَها، فليَغرِسْها" [1]، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على إماطة الأذى عن الطريق فقال: "وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ"[2]

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف الأفنية، ونهى صلى الله عليه وسلم عن التبول في الطرقات وأماكن الظل تحت الأشجاروموارد الماء.حفاظا على الطبيعة جميلة، يرتاح فيها الإنسان وينعم بخيراتها، وبظلها وبمائها.

ومن خلال كل هذا الحديث عن الجمال في ثقافتنا الإسلامية ندرك أن الذوق الجمالي مهم جدا في ديننا وحضارتنا الإسلامية، ولا يمكن أن تقوم حضارة في ظل الفوضى واللانظام والأوساخ، لذلك كان مالك بن نبي يرى أن الطفل إن كان فقيرا، يجب أن لا نجمع عليه الفقروالوسخ، لأن هذا الوسخ يسلب الطفل كرامته وصحته.

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يدرك ما للجمال من أثرفي النفسيات وماله من دور في ربط الصلات[3].

ج_ المنطق العملي:

ويقصد به معرفة العمل وتحديد مقاصده ووسائله، حتى لا يقع المجتمع في استسهال الصعب، واستصعاب السهل، دون مقياس وتقدير، مستمد من الوسط الاجتماعي وما له من إمكانيات وقدرات، فبالمنطق العملي يستخرج المجتمع من الوسائل المتاحة له أقصى ما يمكن من الفائدة والمحصول، فإذا غاب المنطق العملي من المجتمع ضيعت الثروات، وبددت الطاقات والإمكانيات في

_ حديث "إذا قامت الساعة ... "رواه البخاري[1]-.

_ حديث "و تميط الأذى ... "رواه مسلم[2]-.

_ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دت، ص73-74[3].

مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها، ولا ترسم الأهداف لأعمالها، فتكون محاولاتهم هازلة، والسبب كما يقول مالك بن نبي:" افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق" [1].

فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

يرى مالك بن نبي أن الوقت الذي يبني الحضارة إلى جانب الإنسان والتراب، وساعات العمل والتي عبر عنها "بالوقت في معادلة الحضارة" أو الدقائق المنتجة، والساعات التي تصبح تاريخا، لأن ساعات الفراغ تتحول إلى عدم، وهذا ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:" إنما هي أعمالكم ترد إليكم" [2].

إذن الساعات إذا استغلها المجتمع ستتحول إلى إنتاج وثروة، أما إذا لم تستغل فإنها ستتحول إلى ساعات هاربة، ووقت ينتهي إلى العدم، وكما يقول ابن نبي:" فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي تعيش فيها كل الشعوب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها" [3].

إن هذا المعنى هو الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما من يوم يطلع ينشق فجره إلا وينادي منادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة "[4].

---

[1] _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 86.

[2] _ حديث :" انما هي أعمالكم..."رواه مسلم.

[3] _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006، ، ص68، وشروط النهضة ص211_212.

[4] _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص68، وشروط النهضة ص211_212.

إن الحديث عن توجيه العمل في العالم الإسلامي المتخلف هو حديث عن توجيه شيء منعدم تقريبا لأن أغلب ساعاتنا تتحول إلى عدم لخلائها من الإنتاج، بل جل وقت العالم الإسلامي هو ساعات فراغ[1].

فالحديث عن توجيه العمل هو حديث عن تربية الأفراد عن العمل، والبذل والفعالية، وقد تعلم المسلمون هذه الفعالية حين كانوا يشيدون أول مسجد. إن توجيه العمل يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يخطه المجتمع لنفسه، فيساهم في كل أفراد المجتمع في البناء، المهندس والراعي والمرأة والفلاح.. [2].

إنه على قدر ما تكون في المجتمع صناعات وحرف وفنون تتجه أحوال معيشة الأفراد إلى التحسن، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على لمبادرة إلى الأعمال قبل فوات الأوان، ويحث على عدم تأجيل الانجازات حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كانت بيده غرسة يريد غرسها وقامت الساعة فليغرسها"[3]. " فهذه النصيحة لمن يتولى الغرس من المسلمين يجب أن نتأملها ويستفيد منها كل مسلم، حتى في ظرف غيريسير أو أن الساعة قد حلت" [4].

إن هذا الحديث يدع إلى المبادرة، وأن يكون الإنسان فعالا يؤدي نشاطه على أكمل وجه، فتعليم الناس عمل، وإزالة الأذى عن الطريق عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات الفراغ عمل.. وهكذا لا يكون في الأمة كسول ولا اتكالي يعيش عبئا على من يتولاه سواء فردا أو مجتمعا وربما هذا ما عبرت عنه الآية حين قررت وجود إنسانين، أحدهما كَل سلبي والآخر فعّال وايجابي نشيط، إذا ما توجه إلى عمل أداه على أحسن وجه، وكان بإمكانه استعمال وسائله الأولية

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص161-212[1].

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص163[2].

_ حديث " من كانت بيده .." رواه أحمد[3].

_ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص128[4].

واستخراج ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج، فلنعم المال الصالح للرجل الصالح، قال تعالى :" ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾النحل 76) [1].

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا للرجل الفعال المعتمد على نفسه في شخص نبي الله داوود عليه السلام حين قال:" ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده"[2].

كما يقصد مالك بن نبي رحمه الله بالمنطق العملي روح المسئولية والإحساس بالواجب والقيام به دون توان، قبل المطالبة بالحق، لأنه متضمن في الواجب وتابع له[3]..ذلك أن الإقلاع الحضاري مرتبط بوضع نفسي واجتماعي، تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليها من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال بهذه المعادلة يؤدي حتما إلى إرباك عملية البناء وارتكاسها، فالواجب الفائض هو أمارة على التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه نحو ا المجد[4].

ولهذا فان السياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بالتوقيع على وتر الحقوق، ليست سياسة، وإنما هي خرافة وتلصص، فالواجب الدائم هو أن نعلم المجتمع المناهج التي يشق بها الطريق قدما نحو أهدافه، عبر إتقان القيام بالواجب [5].

---

[1]_جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990، ص6-7-9.

[2]_حديث:" ما أكل أحد.." رواه البخاري.

[3]_الطيب برغوث، ص26.

[4]_المرجع نفسه، ص26.

[5]_مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص161-162.

و برمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس[1]، أي تحويل ثقافي شامل، تنجزه جهات كثيرة في المجتمع.

يحث مالك بن نبي على استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة، مهما كانت بساطتها وقلتها، لأن التاريخ في نظره يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل دقيقة، بكل ساعة، لا في معناها المعقد، كما يعمد إلى تعقيده بعض الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة، بعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة، لذا يرى أن حياتنا اليومية تعاني من "اللافاعلية "، إذ يذهب جزء كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة، بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط في حركتنا بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها [2].

تحدث مالك بن نبي كثيرا عن مظاهر اللافاعلية في المجتمع الإسلامي، فيرى أنه لا يلزمنا ملاحظة طويلة لنرى أن المنطق العملي ينقص في مجتمعنا الإسلامي، لأن عجز الأفكاريخلق وينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، وعجزا في مراجعة النتائج، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية وو نتائجها من ناحية أخرى، ومفهوم المحصول لا وجود له في ثقافتنا[3].

حث الإسلام على العمل، ورغب في الأكل من عرق الجبين، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن لا نحتقر الأعمال فقال:"و الذي نفسي بيدِه، لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطبَ على ظهرِه خيرٌ له من أن يأتيَ

---

[1] _مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص108.

[2] _مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990 ص78-147.

[3] _مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، 59.

رجلًا أعطاه اللهُ من فضلِه، فيسألَه أعطاه أو منعه"[1].فالمهم أن يكون الإنسان فعالا، معتمدا على نفسه، فلا يكون كلا متكلا متواكلا، و في الإسلام العمل عبادة .

لذا لابد من توجيه الجهود، والتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية،

هذا الجهاز(الإنسان – السواعد المنتجة) حين يتحرك يتحرك التاريخ، نحو الهدف المنشود، وهنا تكمن فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية لمهمتها، فليس المهم أن ننتج أفكارا فقط، بل يجب أن نوجهها طبقا لأهداف المجتمع[2]..

و يقصد به معرفة العمل وتحديد مقاصده ووسائله، حتى لا يقع المجتمع في استسهال الصعب، واستصعاب السهل، دون مقياس وتقدير، مستمد من الوسط الاجتماعي وما له من إمكانيات وقدرات، فبالمنطق العملي يستخرج المجتمع من الوسائل المتاحة له أقصى ما يمكن من الفائدة والمحصول، فإذا غاب المنطق العملي من المجتمع ضيعت الثروات، وبددت الطاقات والإمكانيات في مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها، ولا ترسم الأهداف لأعمالها، فتكون محاولاتهم هازلة، والسبب كما يقول مالك بن نبي:" افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق" [3].

---

[1]_حديث " والذي نفسي .." رواه البخاري.

[2]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص67.

[3]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 86.

فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

يرى مالك بن نبي أن الوقت الذي يبني الحضارة إلى جانب الإنسان والتراب، وساعات العمل والتي عبر عنها "بالوقت في معادلة الحضارة" أو الدقائق المنتجة، والساعات التي تصبح تاريخا، لأن ساعات الفراغ تتحول إلى عدم، وهذا ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:" إنما هي أعمالكم ترد إليكم" [1].

إذن الساعات إذا استغلها المجتمع ستتحول إلى إنتاج وثروة، أما إذا لم تستغل فإنها ستتحول إلى ساعات هاربة، ووقت ينتهي إلى العدم، وكما يقول ابن نبي:" فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي تعيش فيها كل الشعوب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها" [2].

إن هذا المعنى هو الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما من يوم يطلع ينشق فجره إلا وينادي منادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة "[3].

إن الحديث عن توجيه العمل في العالم الإسلامي المتخلف هو حديث عن توجيه شيء منعدم تقريبا لأن أغلب ساعاتنا تتحول إلى عدم لخلائها من الإنتاج، بل جل وقت العالم الإسلامي هو ساعات فراغ[4].

_ حديث :" انما هي أعمالكم..."رواه مسلم[1].

_ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006، ، ص68، وشروط النهضة ص211_212[2].

_ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص68، وشروط النهضة ص211_212[3].

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص161-212[4].

فالحديث عن توجيه العمل هو حديث عن تربية الأفراد عن العمل، والبذل والفعالية، وقد تعلم المسلمون هذه الفعالية حين كانوا يشيدون أول مسجد. إن توجيه العمل يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يخطه المجتمع لنفسه، فيساهم في كل أفراد المجتمع في البناء، المهندس والراعي والمرأة والفلاح.. [1].

إنه على قدر ما تكون في المجتمع صناعات وحرف وفنون تتجه أحوال معيشة الأفراد إلى التحسن، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على لمبادرة إلى الأعمال قبل فوات الأوان، ويحث على عدم تأجيل الانجازات حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كانت بيده غرسة يريد غرسها وقامت الساعة فليغرسها"[2]. " فهذه النصيحة لمن يتولى الغرس من المسلمين يجب أن نتأملها ويستفيد منها كل مسلم، حتى في ظرف غير يسير أو أن الساعة قد حلت" [3].

إن هذا الحديث يدع إلى المبادرة، وأن يكون الإنسان فعالا يؤدي نشاطه على أكمل وجه، فتعليم الناس عمل، وإزالة الأذى عن الطريق عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات الفراغ عمل.. وهكذا لا يكون في الأمة كسول ولا اتكالي يعيش عبئا على من يتولاه سواء فردا أو مجتمعا وربما هذا ما عبرت عنه الآية حين قررت وجود إنسانين، أحدهما كَل سلبي والآخر فعّال وايجابي نشيط، إذا ما توجه إلى عمل أداه على أحسن وجه، وكان بإمكانه استعمال وسائله الأولية واستخراج ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج، فلنعم المال الصالح للرجل الصالح، قال تعالى :" ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ

_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص[1]163.

_ حديث " من كانت بيده .." رواه أحمد[2].

_ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص[3]128.

وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖهَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾النحل 76) [1].

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا للرجل الفعال المعتمد على نفسه في شخص نبي الله داوود عليه السلام حين قال:" ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده"[2].

كما يقصد مالك بن نبي رحمه الله بالمنطق العملي روح المسئولية والإحساس بالواجب والقيام به دون توان، قبل المطالبة بالحق، لأنه متضمن في الواجب وتابع له[3]..ذلك أن الإقلاع الحضاري مرتبط بوضع نفسي واجتماعي، تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليها من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال بهذه المعادلة يؤدي حتما إلى إرباك عملية البناء وارتكاسها، فالواجب الفائض هو أمارة على التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه نحو ا المجد[4].

ولهذا فان السياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بالتوقيع على وتر الحقوق، ليست سياسة، وإنما هي خرافة وتلصص، فالواجب الدائم هو أن نعلم المجتمع المناهج التي يشق بها الطريق قدما نحو أهدافه، عبر إتقان القيام بالواجب [5].

---

[1]_جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990، ص6-7-9.

[2]_حديث:" ما أكل أحد.." رواه البخاري.

[3]_الطيب برغوث، ص26.

[4]_المرجع نفسه، ص26.

[5]_مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص161-162.

و برمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس[1]، أي تحويل ثقافي شامل، تنجزه جهات كثيرة في المجتمع.

يحث مالك بن نبي على استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة، مهما كانت بساطتها وقلتها، لأن التاريخ في نظره يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل دقيقة، بكل ساعة، لا في معناها المعقد، كما يعمد إلى تعقيده بعض الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة، بعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة، لذا يرى أن حياتنا اليومية تعاني من "اللافاعلية "، إذ يذهب جزء كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة، بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط في حركتنا بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها [2].

تحدث مالك بن نبي كثيرا عن مظاهر اللافاعلية في المجتمع الإسلامي، فيرى أنه لا يلزمنا ملاحظة طويلة لنرى أن المنطق العملي ينقص في مجتمعنا الإسلامي، لأن عجز الأفكاريخلق وينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، وعجزا في مراجعة النتائج، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية وو نتائجها من ناحية أخرى، ومفهوم المحصول لا وجود له في ثقافتنا[3].

حث الإسلام على العمل، ورغب في الأكل من عرق الجبين، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن لا نحتقر الأعمال فقال:"و الذي نفسي بيدِه، لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطبَ على ظهرِه خيرٌ له من أن يأتيَ

---

[1] _مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص108.

[2] _مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990 ص78-147.

[3] _مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، 59.

رجلًا أعطاه اللهُ من فضلِه، فيسألَه أعطاه أو منعه"[1].فالمهم أن يكون الإنسان فعالا، معتمدا على نفسه، فلا يكون كلا متكلا متواكلا، و في الإسلام العمل عبادة .

لذا لابد من توجيه الجهود، والتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية،

هذا الجهاز(الإنسان – السواعد المنتجة) حين يتحرك يتحرك التاريخ، نحو الهدف المنشود، وهنا تكمن فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية لمهمتها، فليس المهم أن ننتج أفكارا فقط، بل يجب أن نوجهها طبقا لأهداف المجتمع[2]..

د: التوجيه الفني أو الصناعة:

ويقصد بها تحويل العلوم النظرية إلى فنون ومهن، واستغلال كل الطاقات والقدرات في العمل الصناعي المثمر، لأن الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم، ولكنها بالنسبة للمجتمع كما يقول مالك بن نبي: "وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه"[3].

ذلك أنه إذا كان لمجتمع قيما أخلاقية تحافظ على علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم _ شبكة العلاقات الاجتماعية _ وإذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطقا عمليا يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات

_حديث " والذي نفسي .." رواه البخاري[1].

_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص[2]67.

_حديث:" ما من يوم ينشق .." لم أجده في الكتب الحديثية [3].

ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

و قد سمى الأستاذ الطيب برغوث هذا التوجيه الفني والصناعي بعالم الخبرات الانجازين، وهو كل ما يساعد الفرد والمجتمع من الخبرات التسييرية الإدارية والاتصالية والفنية والتقنية..لتحسين أدائها الاجتماعي، ورفع مستوى استفادتها من الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة[1]..

أكد مالك بن نبي على ضرورة العناية بتدعيم منظومة الخبرات الانجازين التي تساهم بقسط وافر في تسريع الحركة التاريخية، واختزال الزمن وتوفير الجهد والوقت[2]..

مفردات المنظومة الثقافية :

لما كان للثقافة الموقع المحوري في حركة التجديد والبناء، لأنها تشكل طباع الإنسان وأخلاقه وأذواقه ومنهج سلوكه ومنهجية عمله.وضع مالك بن نبي محاورا لها إذا ما استوفت أتت أكلها في بناء الإنسان وإعداده، وبذلك يكون المجتمع قادرا على النهوض والتطلع إلى الحضارة، والمحاور التي حددها ابن نبي للمنظومة الثقافية هي:

أ_ التوجيه الأخلاقي، لتكوين الصلات الاجتماعية

ب: التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام

ج_ المنطق العملي، لتحديد أشكال النشاط العام

د_ الصناعة، أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع[3].

المبادئ الأخلاقية ضرورية لاستقرار المجتمع ولكي لا يعيش في فوضى ولا نظام، وجدت الأخلاق لتميز الإنسان عن الحيوان، لأن الأخلاق تهدي الغريزة وتوظفها

---

[1] _ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص26.

[2] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص148.

[3] _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص146.

بطريقة سامية، تأتي الأخلاق مع الرسالات لتربط أفراد المجتمع فيما بينهم .إضافة لذلك الارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة . إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة وهو الإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع ودوافعه وغاياته.

الذوق الجمالي: تكمن أهمية الجمال في أنه يمكّن الإنسان من الحياة في نظام وترتيب، وفي جو النظام تغيب الفوضى، فيتمكن الإنسان من إنتاج الأفكار التي تبني المجتمع وتطوره، ذلك أن الصور التي تحيط بالإنسان لها تؤثر تأثيرا كبيرا في فكره وأعماله ومساعيه في الحياة .

والمتأمل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة سيكتشف أنهما أوليا اهتمامهما بالذوق الجمالي والنظام وطهارة النفس والجسم والثياب والمحيط وإماطة الأذى عن الطريق ودعوة للكلام الطيب .. وهي نماذج هذا النزوع الإسلامي لتربية المسلم عن الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية .

والمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا يستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.لابد للمجتمع من معرفة إمكانياته وقدراته وتحديد أهداف العمل، والوسائل المتاحة له، حتى لا يبدد المجتمع إمكانياته وطاقاته في مشاريع لا تستحق كل ما بذله من أجلها.لابد للمجتمع أن يحسن التقدير والتدبير لمشاريعه.

التوجيه الفني أو الصناعة: والمقصود به هو أن نوظف طاقاتنا في العمل الصناعي المفيد للمجتمع، وأن نستغل كل الطاقات والقدرات في العمل الصناعي، لأن الإنتاج يحافظ على المجتمع من التبعية ويحافظ على

وجود المجتمع، لأن الصناعة وسيلة لكسب أفراد المجتمع للدخل، والحفاظ على الكرامة، ويضمن بها المجتمع تطوره واستمراره.

ثانيا: وظيفة الثقافة

يتولى المجتمع تشكيل أبنائه على عاداته، ويطبعهم بطابعه الأخلاقي، ويضبطهم بقواعده وعاداته وتقاليده، فالمجتمع هو الذي يكيف أفراده وفق اتجاهه، فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، يضبطهم هو فلا يخرجون عن ضوابطه، ويتحمل الأفراد مسؤولية النقد اتجاه مجتمعهم، فلا يسمحون بحدوث الخروقات فيه من طرف بعض الأفراد، فالمجتمع يتحمل مسؤولية الإرغام، والفرد يتحمل مسؤولية النقد، هذا النقد الذي يأتي من الصحفي أو الأديب أو الخطيب، أو من الإنسان العادي في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [1].

إن المجتمع المتحضر يقع فيه كل خطأ في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه، واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن به المسلمين حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة آل عمران110)

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في حديث السفينة:" مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا".[2] فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب

_ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 115_[1]116.

_ حديث " مثل القائم.. " أخرجه البخاري [2]-.

السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا.

أما موقف الفرد الاستنكاري أو الناقد فقد فهو تغيير المنكر، فالثقافة في المجتمع وظيفتها الدفاع عن التراث، وأن تصنع تلك اللحمة والالتزام بين الفرد والمجتمع، فلا يسمح المجتمع لأبنائه بالخروج عنه، وأيضا يتحمل الفرد في المجتمع مسؤولية النقد ولا يسمح بالمنكر والخروقات التي تحدث في المجتمع، ولا يرى أنها لا تعنيه.

فدور الثقافة إذا هو خلق اللحمة الاجتماعية، بحيث يصبح فيها الالتزام متبادل بين الفرد والمجتمع، كما في حديث السفينة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجتمع المتحضر هو الذي لا يسمح أن يكون فيه أي انفصال بينه وبين أفراده، فيفقد السيطرة عليهم وعلى توجيه سلوكهم وفق الهدف الذي يرسمه المجتمع لنفسه.

تأتي الطبيعة بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي، وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:" كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[1]. فالمجتمع يكيّف الفرد يشكله طبقا لأهدافه الخاصة ويصبغه بثقافته[2]. فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان الفرد واعظا في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد

_حديث:" كل مولود.." رواه البخاري ومسلم[1].

_مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص115-116[2].

أدبي..فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي – النقد) [1].

إن المجتمع المتحضر يقع كل خطأ فيه في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن الكريم به حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿ كنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. ﴾(آل عمران 110).

الالتزام بين الفرد والمجتمع علامة صحة وتحضر للمجتمع، فالمجتمع يحتوي أفراده، ولا يسمح لهم بالخروج عن أهدافه، فإذا لم يعد المجتمع قادرا على السيطرة على أبنائه بكفهم عن ضروب الفساد، وإذا ما صار الفرد لا يهتم بما يحدث في مجتمعه ومحيطه، وفقد حقه أو رغبته في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، هنا تحدث ا أزمة الثقافية، و التي تعني الانفصال بين الفرد والمجتمع.

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في مواضيع عدة منها حديث السفينة :" مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و....و نجوا جميعا"[2].

فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا، أما موقف الفرد الاستنكاري أو الناقد فقد عبر عنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:" من رأى منكم منكرا فليغيره" [3]. "فكل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن

_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص[1]84.

_حديث" مثل القائم.."رواه البخاري ومسلم[2].

_حديث" من رأى منكم منكرا.."رواه الترمذي[3].

تراثها وذلك بأن تضع أولا بين الجسم الاجتماعي والفرد ذلك التبادل الذي يقوم على تقويم الأخطاء مهما يكن مصدرها"[1].

فدور الثقافة إذا هو خلق اللحمة الاجتماعية، بحيث يصبح فيها الالتزام متبادل بين الفرد والمجتمع، كما في حديث السفينة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجتمع المتحضر هو الذي لا يسمح أن يكون فيه أي انفصال بينه وبين أفراده، فيفقد السيطرة عليهم وعلى توجيه سلوكهم وفق الهدف الذي يرسمه المجتمع لنفسه.

من أولى واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الأخلاقي والاجتماعي، بما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية ووالداعية إلى الحياة .ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع، يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة و نخلص من ذلك ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

_ سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي

_ ايجابية تصلنا بالحياة الكريمة[2].

و قد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التجديد من ناحيتها السلبية والايجابية، إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التجديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية[3].

إذا كانت الثقافة هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فيكتسب منه أسلوب الحياة وطريقة التعامل، ومنه يكتسب الأخلاق والقيم والأذواق والحرف والفعالية، وجب تنقية هذه الثقافة باستمرار من أي وافد ضار بالفرد والمجتمع .

---

[1]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص46-47.

[2]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص71.

[3]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص72.

من خلال البحث في موضوع الثقافة في فكر مالك بن نبي رحمه الله، توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

_ الثقافة هي المحيط الذي ينشأ فيه الإنسان، ففي جوها يكتسب أسلوب الحياة، وطريقة التعامل فالثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة.

_ تتكون الثقافة من عدة محاور، المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والنشاطات، والصناعة والفن الملائم لكل مجتمع، إذا ما استوفت هذه المحاور في مجتمع أتت أكلها وحدثت النهضة وأُقيمت الحضارة .

_ ثقافتنا الإسلامية تحث على محاور الثقافة التي دعا إليها مالك بن نبي، فإذا ما وظفناها ثقافتنا الإسلامية واستثمرناها، وعشنا بما تدعو إليه، تتحقق النهضة، فهي تدعونا إلى التزام المبادئ الأخلاقية ومراعاة الذوق الجمالي في كل حياتنا وتحث على العمل والكسب وتعلم الحرف والصناعات.

_ الأخلاق وظيفتها ربط الأفراد بعضهم ببعض، والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة كي يختلف الإنسان عن الحيوانات في تصرفاته وردات فعله.

_ يدعم مالك بن نبي أفكاره بالأمثلة من الثقافة الإسلامية خصوصا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحياة الصحابة والمجتمع الإسلامي، وأيضا المجتمع العالمي.

_ إن بن نبي يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد .

_ إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة هو والإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودوافعه وغاياته.

_ ارتباط الحضارة بالثقافة، الثقافة التي تمد الإنسان بالأخلاق فلا يتصرف بهيمية أو بالغريزة، وتجعل له ذوقا جماليا في اللباس والمحيط وفي كلامه وأسلوب تعامله، وتحثه على العمل وتجعل منه إنسانا فعالا نشيطا يستغل وقته بالحرف والفنون والصناعات، فانه سيقيم حتما حضارة، لكنه إلى إذا انتكس عن الأخلاق وعن الذوق وصار كسولا عالة على غيره خرج من الحضارة وتحول إلى البداوة

_ قيمة الذوق الجمالي في بناء الحضارة أن الأفكار الحية البناءة ألا تنتج إلا في وسط منظم فيه من من مسحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه. والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن.

_ وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية.

_ فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

_ الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم.

_ الثقافة تضمن خصوصية الشعوب، لذلك تعد عملية تنقية الثقافة وتوجيهها باستمرار أمر مهم، تنقيتها من الوافد الضار، وهذا ما تفعله الحركات الإصلاحية باستمرار.

_ وإذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطقا عمليا يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل

المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

_ ولا بد من إزالة الخلط بين الثقافة والتعليم، فالثقافة هي فلسفة الإنسان، بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة بوظيفة الإنسان.الثقافة وسط يعيش في ظله الإنسان المتعلم وغير المتعلم.

_ لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة- فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد تاريخه.

_ وتأثير الجمال في الحياة الاجتماعية، أنه لا يمكن تصور الخير منفصلا عن الجمال.

_ الجمال يعني النظام ..الصحة..جمال المحيط الاجتماعي، إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجوهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام ذات.

عشرون: الديمقراطية في الإسلام.

تنتهج الدول الكبرى المتقدمة (أمريكا، أوبا....) الديمقراطية أسلوبا لنظام الحكم، وتحلم الدول المتخلفة، وتسعى لتطبيق هذا المنهج في سياستها .فما هي الديمقراطية ؟ وهل توجد ديمقراطية في الإسلام ؟ وما هو الإسلام؟

إن كلمة إسلام من ابتكار القرآن، أما الديمقراطية فلا نعرف متى درجت في اللغة العربية كمفردة مستوردة ؟ فضلا عن ذلك فلا نعرف حتى تاريخ حدوثها في اللغة الأصلية فكل ما نعرفه أنها كلمة يونانية .[1]

فالصلة مفقودة بين المصطلحين (إسلام، وديمقراطية) بالنسبة للمكان والزمان، وكذلك في المعنى، فالديمقراطية تعني سلطة الشعب، أو سلطة الإنسان

[1] القضايا الكبرى، ص: 134.

أو الجماهير، أما الإسلام فيعني كما جاء في الحديث المشهور في جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – لجبريل حين سأله جبريل: « ما الإيمان ؟.....إلى أن قال ما الإسلام، قال: الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان.. »[1]، فأي وجه مقارنة بين مفهوم سياسي يفيد مجمله تقرير سلطة الشعب في نظام اجتماعي معين، وبين مفهوم ميتافيزيقي يفيد مجمله خضوع الإنسان إلى سلطة الله في هذا النظام أو غيره ؟[2]

إن للديمقراطية شروطا لا يمكن أن تتحقق كواقع سياسي إلا بتوفر هذه الشروط الثلاثة :

1- الديمقراطية كشعور نحو الأنا .
2- الديمقراطية كشعور نحو الآخرين .
3- الديمقراطية كمجموعة الشروط الاجتماعية والسياسية اللازمة لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد .[3]

فهذه الشروط يجب أن تبنى عليها الشخصية، وأن تغرس في العادات، والتقاليد القائمة في البلد، فقد تحقق الشعور الديمقراطي في أوروبا نتيجة حركة النهضة والإصلاح، فلا يمكن لهذا الشعور أن ينفصل عن تاريخ أوربا ليطبق على الأمم الأخرى. [4]

إن الشعور الديمقراطي هو الحد الوسط بين طرفين متناقضين العبد والمسكين في طرف، والمستعبد المستبد في طرف آخر، لأن العبودية تنفي الأنا، والاستبداد ينفي الآخرين ويلغيهم. فإذا ما وجد هذا الشعور (الاستبداد أو العبودية)، فإنه لا وجود للديمقراطية، ولا للإنسان الحر، ونجد ذلك في قصة

[1] حديث: «ما الإيمان .....» رواه البخاري ومسلم .
[2] القضايا الكبرى، ص: 135-136.
[3] المصدر نفسه .ص :137.
[4] المصدر نفسه .ص: 139.

ألف ليلة وليلة إذ تتكرر: نعم يا مولايا سمعا وطاعة، فهذه نافية للأنا، ولاغية لها، ونجدها في روسيا حين يسقط الجندي نفسه من أعلى بإشارة من حاكمه، فهو يعبر عن موقف العبد، وموقف الرجل المستبد.[1]

والسؤال المطروح هو هل الإسلام يتكفل ويتضمن هذه الشروط الثلاثة؟ هل يخلق الظروف الاجتماعية المناسبة لتنمية الشعور بالأنا، والآخرين: وهل الإسلام يحد من هذه النزعات المنافية للشعور الديمقراطي ؟

إن كل مشروع يهدف إلى تأسيس ديمقراطية، هو في الأساس مشروع تثقيف لأمة بكاملها، وفق منهج يشمل الجانب النفسي، والأخلاقي والاجتماعي والسياسي، والاقتصادي ... إلخ. فالديمقراطية ليست عملية سياسية كما نفهمها فهما سطحيا، أو أنها عملية تسليم السلطة إلى الشعب[2].

لا يسوغ لنا أن نقول أن القرآن الكريم دستور يعلن عن سيادة شعب معين، بل ينبغي أن نعتبره في هذا السياق مشروع ديمقراطي تعززه الممارسة، فنرى من خلاله موقع الإنسان المسلم من المجتمع الذي يكون محيطه، وهو في الطريق نحو تحقيق القيم والمثل الديمقراطية، التي غرست في شعور المسلم ووعيه .[3]

إذا كانت في الغرب تمنح للإنسان بعض الحقوق السياسية، أو ضمانات اجتماعية فإن الإسلام يمنح قيمة تفوت كل قيمة سياسية أو اجتماعية لأن القرآن يمنح للإنسان(وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي ءَادَمَ)[سورة الإسراء: 70]، فهذا التكريم يحمل أكثر من حقوق أو ضمانات، إن هذا التكريم هو إعزاز للنفس، وللآخرين وبذلك يتحقق الشرط الأول والثاني للشعور الديمقراطي، لأن النظرة الإسلامية للإنسان، نظرة تكريم، نظرة إلى الجانب اللاهوتي فيه. بينما النماذج الأخرى تنظر للفرد بالنظر إلى الجانب الناسوني أو الجانب الاجتماعي فيه، وبذلك يضفي

[1] المصدر نفسه . ص: 139-140-141.

[2] المصدر نفسه .ص: 143-144.

[3] المصدر نفسه .ص:145.

الإسلام على الإنسان شيئا من القداسة ترفع قيمة الإنسان فوق كل قيمة تعطيها له النماذج المدنية الأخرى.[1]

إن الإنسان الذي يحمل الشعور بتكريم الله سبحانه وتعالى سيشعر بوزن هذا التكريم في تقديره لنفسه، وكذلك في تقديره للآخرين، لأن النزعات السلبية المنافية للشعور الديمقراطي قد تبددت في نفسه، إضافة إلى أن الإسلام قد وضع حاجزا يمينا وشمالا، حتى لا يقع المسلم في هاوية الاستبداد أو هاوية العبودية. فقال تعالى: (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (سورة القصص: 83) فهذه مانعة من هاوية الاستبداد، أما الحاجز الثاني المانعمن هاوية العبودية فيقول تعالى: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(94) لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95(دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (96(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَاۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)97 (سورة النساء 96-97)،

وكذلك نجد التكريم في قوله تعالى: (وَلِلهِ العِزَّةُ وَلرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[سورة المنافقون: 8]

[1] المصدر نفسه .ص 148.

فالعزة هنا هي سمو الأخلاق وعلو الهمة، وليست عزة تعرض للكبرياء، لأنها غير متعلقة بالأشياء المادية.[1]

فهذه هي الديمقراطية في الإسلام، أما الديمقراطية العلمانية أو اللائكية فإنها تمنح للإنسان حقوقا سياسية وضمانات اجتماعية ثم تتركه عرضة لأن يكون ضحية مؤامرات لمنافع معينة ولتكتلات خاصة، أي أنها تجعل الآخرين تحت ثقل دكتاتورية طبقية لأنها لم تصف في نفسه دوافع العبودية والاستعباد [2].

جاء الإسلام فشمل في تقويمه للإنسان الرق كذلك، وهذه نصوص حديثية إضافة إلى آيات قرآنية تعتبر مشروعا يضم في خطوطه العامة مصير الرقيق إلى مصير الإنسان الحر فتضيف الرقيق إلى عالم الآخرين (عالم الأشخاص) بعد أن كان من عالم الأشياء [3] فيقول صلى الله عليه وسلم -: « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار» [4] ويقول أيضا: « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه »[5] ويقول أيضا في حديث آخر يوصي فيه بشأن الرقيق: «إنهم إخوانكم وضعهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون، وأكسوهم مما تلبسون» [6] ويقول أيضا: «أوصاني حبيبي جبريل بالرفق والرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » [7] فهذه النصوص تكمل حل مصير الرقيق في المشروع الديمقراطي، ثم يجيء التصريح بحقوق الإنسان في حجة الوداع في قوله -صلى الله عليه وسلم -: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم

---

[1] المصدر نفسه .ص:148.

[2] تأملات .ص: 78.

[3]

[4] حديث « من أعتق رقبة .....» رواه البخاري ومسلم .

[5] حديث :«من لطم مملوكا ....» رواه مسلم .

[6] حديث: «إنهم إخوانكم.....» رواه البخاري ومسلم .

[7] حديث: «أوصاني حبيبي .....» رواه سعيد بن منصور .

وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي. ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»[1]

إن الديمقراطية تتجسد في أعمال الجيل الذي وضع المشروع الديمقراطي الإسلامي، من اليوم الذي أشرقت فيه الهداية المحمدية، ولكن المشروع الذي يحمي الحريات الفردية كان يضع في الوقت نفسه الحدود اللازمة لهذه الحريات كما في الحديث المشهور: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، ، فكان الذين في أعلاها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[2]فهذا الحد الموضوع لكل حرية مهم في التشريع الإسلامي، حيث تقدم مصلحة المجتمع على مصلحة الأفراد. [3]

إن المشروع الديمقراطي الإسلامي لم يهمل أي جانب من جوانب الحياة، فهاهو ينظم الحياة المادية هادفا إلى توزيع الثروة حتى لا تصبح مكدسة في أيدي المترفين، فيشرّع الزكاة، ويحث على الإنفاق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« إن الله اقتطع من أموال المسلمين الأغنياء نصيبا هو نصيب الفقراء، لأن الفقراء لا يجوعون ولا يعرون إلا بسبب الأغنياء» .[4]

لقد أعفى المشروع الإسلامي الاقتصاد من سلطة الدرهم المطلقة، فالإسلام لم يقاوم فقط الاحتكار الكبير الذي يقلل كمية المنتجات حتى ترتفع أسعارها، بل قاوم كل طريقة تؤدي إلى ارتفاع الأسعار، ومن ذلك كل وسيط يكون بين المنتج والمستهلك، لأن هذا الوسيط طفيلي في مجال الاقتصاد والإسلام يدين كل ضرب

---

[1] حديث: «يا أيها الناس إن ربكم ... » روي في كنز العمال .

[2] حديث «مثل القائم في حدود الله .... » رواه البخاري .

[3] القضايا الكبرى . ص: 155.

[4] حديث: «إن الله اقتطع... » رواه سعيد بن منصور .

من ضروب الطفيلية ولا أدل على ذلك من حديث- رسول الله صلى الله عليه وسلم –«نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن التلقي وأن يبيع حاضر لباد »[1]فالإسلام يدين كل طفيلية وكل غبن يلحق بأحد الطرفين البائع أو المشتري.

يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وفي حديث يرويه أنس بن مالك: « نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن بيع الثمار حتى تزهر. أي تحمر، فقال: أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه»

إن هذه التشريعات تكوّن الجانب الاجتماعي في الديمقراطية الإسلامية، فلا يقع المسلم في وضع العبد الذي تستعبده الأوضاع الاقتصادية، أو أن يصبح الرجل المستبد وبيده صولجان الذهب.

واحد وعشرون: أخلاقيات الثورة وفلسفتها:

يعرف مالك بن نبي -رحمه الله - الثورة فيقول: "الثورة هي عملية هادفة تحاول تغيير أوضاع معينة بطريقة مستعجلة"[2]ولفظ بطريقة مستعجلة له دلالته وخصوصيته، فالثورة من أهم مقوماتها محاولة تجاوز عامل الزمن، بإعادة ترتيب سريع في موازين كيان معين أيا كان هذا الكيان إضافة إلى أنها لا تعنى دائما التغيير المسلح .[3]

ولو اعتبرنا الإسلام ثورة، لرأينا أنه استطاع تغيير البناءات السياسية والاجتماعية والأخلاقية، والثقافية في المجتمع الجاهلي، فغير حتى أسماء الرجال لمعتنقيه. فكان نمو الثورة في أدق ما في الكلمة من معنى[4].

---

[1] حديث: «نهى رسول ....» رواه البخاري .

[2] صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي .ص:131.

[3] عمر حيدوسي، ثلاثية الاستعمار، الثورة، الاستقلال في فكر مالك بن نبي، جريدة الشروق الثقافي (تصدر عن الشروق العربي، العدد رقم 15، أسبوع متن 04 إلى 11 نوفمبر 1993م) .

[4] بين الرشاد والتيه، ص :15.

إن لكل ثورة منهجا يتضمن المبادئ التي تسير عليها، لأنها ليست إحدى الحروب تدور رحاها مع العدد والعدة، بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة، ونجاح أي ثورة أو فشلها مرهون بقدرتها على المحافظة على محتواها في الطريق أو بتضييعه وبالتالي فشلها. وإن ثورة ما لن تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن لها قاعدة أخلاقية قوية[1].

إن الثورة الإسلامية تقدم لنا دروسا عالية في الحفاظ على مسلمات وأخلاقيات الثورة، فهاهو النبي رسول الله -صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد يتعرض جيشه لضربة قاسية من طرف المشركين، ولكنه على قلة عدة وعدد جيشه ظل يرفض أي مدد من رأس المنافقين . فكان يقول صلى الله عليه وسلم :« لا يقاتل معنا إلا من هو على ملتنا» .[2]

ويأتي القرآن ليؤيد موقف النبي -صلى الله عليه وسلم« قال تعالى: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (سورة التوبة: 47) ذلك أن الثورة يجب أن تتجنب القتال مع متطوعين غرباء، أو مرتزقة، وربما هذا المبدأ هو الذي جعل القيادة السوفياتية وهي في أحلك أيام الحرب العالمية الثانية، ترفض مدد الحلفاء يأتيها عبر إيران. [3]

إن الثورة إذا لم يحفظ أفرادها في عقولهم وقلوبهم مقدمات ومسلمات الثورة فلن يفقدوا عقالا فقط بل سيفقدون الروح الثوري، فالثقة بالمحتوى الثوري ومنحها لأولوية هو الأساس لنجاح الثورة، يقول كاستروا: " إن سياسة الثورة لا تقوم على الحسابات، فالمصلحة الوطنية وما يمليه أمر الدولة إنما تقوم على

---

[1] المصدر نفسه . ص: 15-25 .

[2] حديث: «لايقاتل معنا ....» رواه ابن حبان .

[3] بين الرشاد والتيه . ص: 16.

المبدأ الأخلاقي "[1] إن الثورة الحقيقية لا تقوم فقط لتحقيق أهداف اجتماعية كتحقيق العدالة، الطبقية، بل الثورة تهدف إلى أكبر من ذلك، إذ تهدف إلى استعادة شخصية الإنسان، وتعليمه وتلقينه معنى كرامته. فلا تضمن له حقوقا فقط، بل تفرض عليه واجبات. ولا أدل على ذلك من هذا الحديث النبوي الشريف. يقول حكيم ابن حزام:« سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي:" يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاء نفس بورك له فيه، ومن أحده باستشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من

اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك

شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعوا حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل، فقال عمر: يا معشر المسلمين، إني عرضت عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فأبى أن يأخذه . فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي رحمه الله »[2]، إن هذا الحديث يوضح أخلاقية من أخلاقيات الثورة، حين تدفع الإنسان إلى استعادة شخصيته، وحفظ كرامته، فيعطي الإنسان حقه، ولكن مع الحفاظ على كرامته .

إذا ما حققت الثورة أهدافها (النهوض الاجتماعي، الاقتصادي، والسياسي والثقافي، ، ، الاستقلال) فإنها تبدأ مرحلة ما بعد الثورة أو الاستقلال . ففي هذه المرحلة لا بد أن تتركز الاهتمامات حول مفهوم الفعالية، والعمل لتحقيق التنمية، لاستقلال الوسائل والأدوات المتاحة في الدولة .

[1] المصدر نفسه . ص: 22.

[2] حديث (هذا المال خضرة ....) رواه البخاري ومسلم .

إن الاستقلال هو إعلان للسيادة الوطنية، ولا يمكن لهذه السيادة أن تتحقق واقعيا إلا إذا ما حدثت التنمية في السياسة، والاقتصاد، والثقافة ..... " فإعلان السيادة حاصل منذ اللحظة الأولى، قد كتبته الدماء الزكية، التي أراقها الشهداء على مذبح الوطن، أما أداة التربية فإنها تتطلب أكثر من ذلك، إنها تتطلب عرق الأحياء في عملهم المشترك .[1]

وهكذا فبعد الكفاح المسلح، يأتي الكفاح بحمل المحراث، والمطرقة، والقلم .... من أجل صنع الدولة بالعمل الدءوب والمثابرة المستمرة، لأن " الدولة تصنع نفسها بما تنجز من أعمال " [2]وهذا ما عبر عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله: « إنما هي أعمالكم ترد إليكم، كما تكونوا يول عليكم »[3] إن هذا الحديث له أبعادا اجتماعية وسياسية نلخصها على الصعيد التربوي في: إذا أردت أن تصلح أمر الدولة، فأصلح نفسك، ذلك أنه إذا ما تحمّل كل إنسان مسؤولية البناء، وكان فعالا في الكيان الاجتماعي، فحتما، يصلح أمر الدولة .

والخلاصة أن لكل ثورة ما بعدها، فإذا واصلت الأمة الكفاح بالقلم، والمحراث .... كان للاستقلال أهمية في الحفاظ على السيادة الحقيقية للبلاد، وقد علمنا أن سيادة الدولة في أعمالها المنجزة في استغلالها لثرواتها ووسائلها، وفي فعالية كل أبنائها، وربما هذا ما كان يعنيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين عاد من أحد غزواته فقال « عدنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر »[4]لأن الجهاد الأكبر هو جهاد البناء والتشييد[5] .

---

[1] بين الرشاد والتيه . ص: 40.

[2] المصدر نفسه . ص: 40.

[3] حديث: «إنما هي أعمالكم ....» رواه مسلم، والشطر الثاني منه روي في كشف الخفاء ومزيل الإلباس .

[4] حديث «عدنا من الجهاد الأصغر ...» روي في كنز الأعمال .

[5] بين الرشاد والتيه، ص: 112-113.

اثنان وعشرون: أساس الإصلاح والتربية الاجتماعية:

كانت الفكرة الإسلامية هي المحرك لبناء مجتمع دخل الحضارة بفضل هذه الفكرة بذلك فقد أثبتت صلاحيتها في بناء المجتمع أدى نشاطه المشترك ببالغ التوفيق، لقد جعلت هذه الفكرة من البدوي إنسانا متحضرا، فأخضعت طاقتهم الحيوية، وكيفتها وفق مقتضيات المجتمع ومتطلباته.[1]

فإذا ما أراد المسلم اليوم إعادة نهضته مجتمعة، وبعـ بعث حضاريا فإن قوانين تربية ن وإصلاح المجتمع يجب أن تستقي من علم التاريخ، وعلم الاجتماع وعلم النفس لأن هذه القوانين لا يغيرها الزمن، فنهضة مجتمع ما تتم في الظروف نفسها التي تم فيها ميلاده، وكذلك بناؤه وإعادة هذا البناء يخضع للقانون نفسه الذي خضع له ميلاده.[2]

هذا القانون هو ما عبر عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم بقوله: « لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » [3]

وكذلك الأزمات فإنا نقدر خطرها على المجتمع بالنظر إلى ميلاده، فاليوم يعيش المسلم انفصالا بين الفكر والسلوك ولو أن المسلمين في القرن الأولى للإسلام اكتفوا بصلاة في المسجد، من المؤكد أنهم ما كانوا ليغيروا الوسط الجاهلي بل ربما كان الوسط هو الذي يؤثر فيهم، فيذبوا فيه، ولكن أنقذهم النشاط المشترك واليوم المشكلة نفسها تواجه المسلم، وما عليه إلا أن يتخلص من هذا الانفصال بين الفكر والسلوك، أو بين عالم أفكاره وسلوكه، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد نبه لطريقة الخروج من الأزمات حين قال: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».[4]

---

[1] ميلاد مجتمع، ص107، 108.

[2] المصدر نفسه، ص: 76

[3] حديث « لا يصلح ..... » قول للإمام مالك بن انس – رضي الله عنه –

[4] ميلاد مجتمع . ص: 114

خاتمة

بعد عملية البحث والمدرسة لفكر مالك بن نبي ولموضوع الأبعاد الاجتماعية للأحاديث النبوية الواردة في فكر مالك بن نبي رحمه الله تم التوصل إلى النتائج الآتية:

_ الإطار المعرفي لفكر بن نبي هو الدراسات الاجتماعية، لأن كل المواضيع التي انبرى لدراستها من مشكلة الحضارة والثقافة، أمراض العالم الإسلامي .. كل هذه المباحث هي من اهتمام علم الاجتماع.

_ يتميز الفكر البنابي بالواقعية، حيث كان ينطلق من واقع عاشه، وكذلك من مميزاته النزعة التحليلية الرياضية والنسقية وعدم التناقض، فمالك بن نبي حينما يؤمن بقضية يظل يؤكد أهميتها في كل كتبه ولا يتراجع عنها، أضف إلى ذلك سلامة التشخيص وتعدد زوايا النظر، فهو ذو معرفة شمولية (له اطلاع في علم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ، وعارف بالدين الإسلامي والمسيحي، مهندس..)

_ إن مالك بن نبي في تحليله للواقع والتاريخ كان يصل إلى نظريات ونتائج يسعى للتدليل على صحتها بك ما أوتي من معارف ومما كان يستشهد به النصوص القرآنية والنصوص الحديثية، فمالك بن نبي كان ينطلق من الواقع والتاريخ فيصل إلى آراء ومفاهيم ونظريات يقررها النص القرآني والنص الحديثي، فهو لم يكن يفسر أو يشرح، بل كان يستشهد فيحسن الاستشهاد، كان باستشهادة يفهم أن لهذه الأحاديث النبوية أبعادا اجتماعية، وهكذا نجده فاهما للنصوص الحديثية، ولدلالاتها العميقة، فمالك بن نبي كان على وعي تام بدلالات الحديث الاجتماعية خاصة وأننا نجده يقول في أكثر من موضع والنبي الاجتماعي رأى كذا وكذا..فهو يدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على وعي تام بالنظريات والسنن الاجتماعية، كيف ل و(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ.إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (النجم 3، 4) فكان مالك بن نبي إذا وصف ظاهرة ما، أو مرضا يقول وقد عبر عنها

الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن تعبير حين قال ...، وقد يصل إلى رأي، أو نظرية فيأتي بالدليل من النصوص الحديثية تأييدا لصحتها.

_ إن أغلب نظريات ابن نبي لها أدلة تؤيدها من الكتاب والسنة، وكأن ابن نبي رحمه الله كان يؤصل نظرياته حين كان يأتي لها بالشواهد من الكتاب والسنة .

_ وظف ابن نبي أحاديث مختلفة المواضيع حتى الفقهية، ليفهم منها دلالات اجتماعية، وإن فهم الأحاديث وتوظيفها في مثل الدراسات وفي مثل مواضيع اجتماعية يعتبر فهما جادا لدلالات ومعاني الحديث العميقة، وأن النصوص الحديثية تحوي نظريات اجتماعية يكشف عنها مثل هذا التوظيف.

_ على قلة النصوص الحديثية الموجودة في فكر مالك بن نبي إلا أن توظيفها وفهم أبعادها ومواضيعها وما استنتجه منها خطوة يحتذى بها لفهم النصوص الأخرى على هذه الطريقة، و لاستخلاص ومعرفة ما فيها من سنن ونظريات اجتماعية، خاصة ونحن في عصر تستغل فيه الأمم العظمى نتائج علم الاجتماع ونظرياته في فهم نفسيات الشعوب وقدراتها ومعرفة ماضيها وحاضرها ..فتستغلها كما تشاء، لأنها تعرفها معرفة علمية، لكل ذلك فالأولى فهم الأحاديث النبوية ووعي دلالاتها الاجتماعية، فخطوة ابن نبي هذه ومعرفة دلالات الحديث والبعد عن السطحية في الفهم، والوصول إلى نظريات تؤيدها الأحاديث النبوية الشريفة تدفعنا إلى النظر في باقي الأحاديث، وإلى الوعي بدلالاتها الاجتماعية ليأتي التطبيق، وإلا فستكون النصوص معطلة عن الفهم والعمل.

_ إن نظريات ابن نبي رحمه الله لها أصالة إسلامية، من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لذلك فمن المفيد للأمة الإسلامية أن تأخذ بعين وبجد كل ما توصل إليه من آراء ونظريات حتى لا تبق تتخبط في أزماتها وأمراضها المختلفة، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعلاقات الدولية .

الفهرس

الفصل الأول: التعريف بمالك بن نبي وتحديد محاور تفكيره 9

المبحث الأول: التعريف بمالك بن نبي –رحمه الله- 11

أولاً- حياة ابن نبي –رحمه الله-.....11

1-المولد والنشأة.....11

2- المرحلة الباريسية 1930-1956م 14

3 - المرحلة القاهرية 1956 - 1963 م.....15

4- العودة إلى الجزائر.....16

ثانياً: مؤثرات أذكت فكر مالك بن نبي:.....17

1- تأثير الوسط العائلي: 17

2- تأثير المدرسة:.....18

3- تأثير المصادر المعرفية المختلفة.....19

4- رحلاته:.....21

5- الواقع السياسي في تلك الفترة.....23

6- الإطلاع الواسع على الكثير من العلوم.....23

ثالثاً: مالك بن نبي ما ألفه، وما ألف حوله 24

1-مؤلفات مالك بن نبي –رحمه الله- المطبوعة.....24

2-مؤلفات مالك بن نبي –رحمه الله- المخطوطة.....25

3-فكر ابن نبي -رحمه الله- والبحث العلمي:.....26

المبحث الثاني: محاور تفكير مالك بن نبي.....29

أولاً: قراءة مختصرة في مؤلفات مالك بن نبي.....29

ثانياً: محاور تفكير مالك بن نبي –رحمه الله-.....33

3- مشكلة الثقافة:.....42

3- مشكلة الأفكار:.....48

ثالثاً: مميزات فكر مالك بن نبي 53

رابعاً: وضع مؤلفات مالك بن نبي في إطارها المعرفي.....57
الفصل الثاني: البعد الاجتماعي للحديث النبوي حسب المواضيع التي وُظف فيها..61
أولا: قضية المرأة.....63
1_ مكانة المرأة.....65
2_ بحث مشاكل المرأة يقتضي بحث مشكلة الرجل أيضا:.....67
3_من الخطأ مقارنة المرأة بالرجل:.....67
4_ دوافع المناداة بتحرير المرأة.....67
5: حقوق المرأة :.....68
6: حجاب المرأة :.....69
7_تقليد المرأة الغربية :.....70
8_ مؤتمرات النساء:.....72
9_ عمل المرأة.....73
10_ تعدد الزوجات:.....74
11_ مآلات تطور المرأة :.....74
ثانيا: وزن الوقت:.....75
ثالثا: الترابط بين القيم الأخلاقية والاقتصادية :.....76
رابعا: رسالة المسلم في العالم :.....78
خامسا: شروط فاعلية الفكرة:.....82
سادسا: فوضى العالم الغربي الحديث:.....84
سابعا: دور الفكرة الدينية في المجتمع:.....84
ثامنا: مميزات الحضارة في مرحلة الروح:.....85
تاسعا: مميزات الحضارة في مرحلة العقل:.....87
عاشرا: أهمية توجيه الذوق الجمالي:.....87
حادي عشر: أشكال بناء المجتمع:.....88
ثاني عشر: المرض الاجتماعي:.....89

ثالث عشر: أساس الإصلاح والتربية الاجتماعية:.....89
رابع عشر: أهمية توجيه العمل: 91
خامس عشر: دور المستشرقين في الفكر العربي:.....92
سادس عشر: المرض الإجتماعي.....95
سابع عشر: شبكة العلاقات الاجتماعية:.....99
ثامن عشر: المرض الاجتماعي :.....101
تاسع عشر: مشكلة الثقافة 108
1_ مفهوم الثقافة.....111
2_ مفردات المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي 116
ثانيا: وظيفة الثقافة 141
عشرون: الديمقراطية في الإسلام.....147
واحد وعشرون: أخلاقيات الثورة وفلسفتها:.....153
اثنان وعشرون: أساس الإصلاح والتربية الاجتماعية:.....158
خاتمة.....159

الدكتورة فهيمة بن عثمان، باحثة في الدعوة و الإعلام، أستاذ محاضر أ بجامعة الوادي، من مواليد 1979 بولاية المسيلة - الجزائر ، متحصلة على شهادة الدكتورة من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة سنة 2017، وشهادة الماجيستير من جامعة باتنة في الدعوة والإعلام سنة 2005، وشهادة الليسانس في الكتاب والسنة من جامعة باتنة سنة 2001. وبكالوريا 1997 في العلوم الإسلامية.

للباحثة الكثير من المقالات المنشورة في المجلات الوطنية والعالمية، في مجالات بحث تهتم بها الباحثة مثل: الدراسات القرآنية الدعوية _ الخطاب الديني_ القضايا الدعوية _ الإعلام الإسلامي _دراسات الجمهور_ ، الفكر الإسلامي، المؤسسات الدعوية، الاتصال و طرق التأثير و الإقناع..

وللباحثة مشاركات كثيرة جدا في مؤتمرات دولية ووطنية ، وكتب جماعية كثيرة.

البريد الإلكتروني: benatmane-fahima@univ-eloued.dz

fahimabenathmane28@gmail.com

ISBN: 978-9969-642-08-7